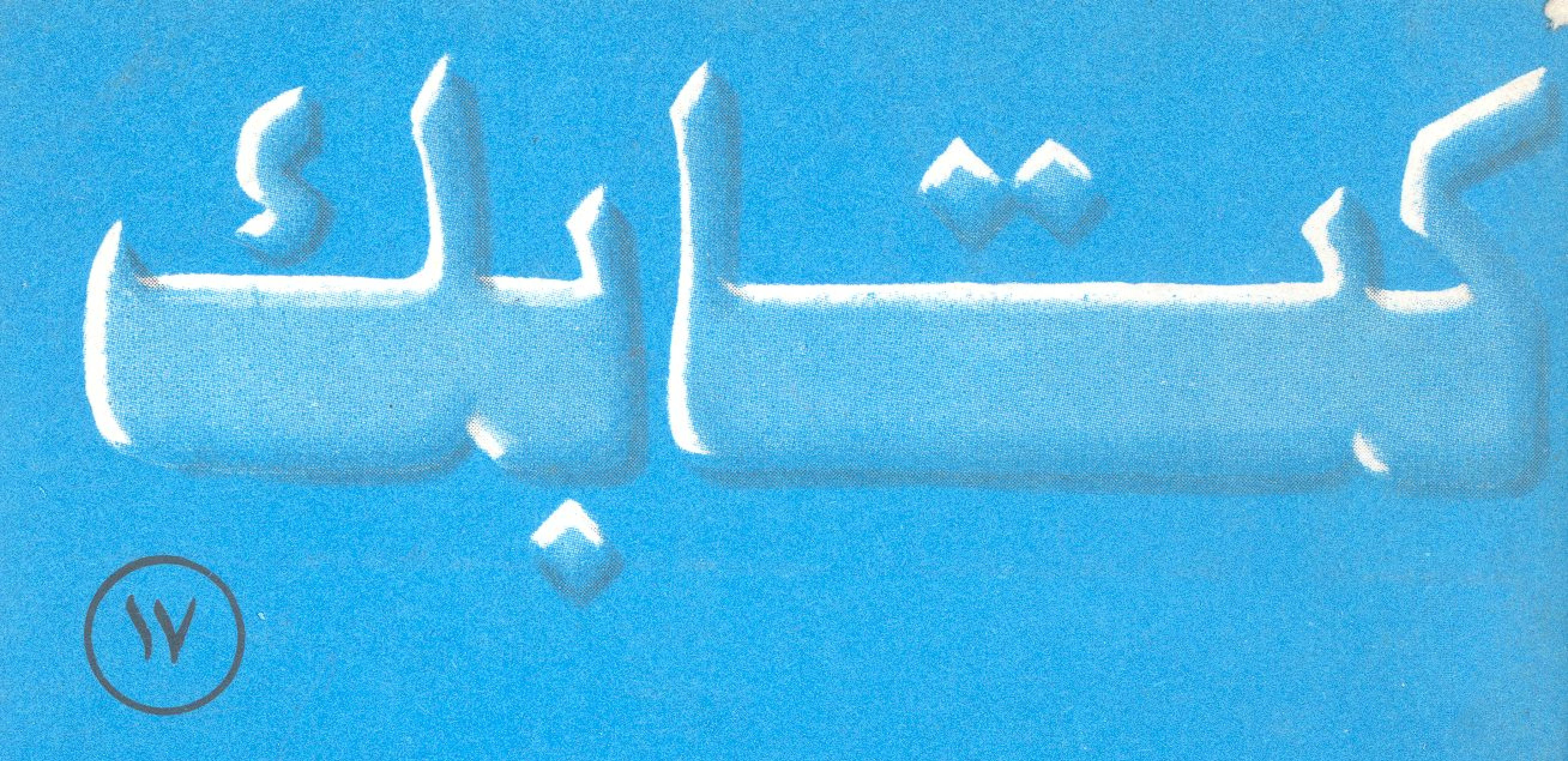


د. محمد بديع شريف

المساواة في الإسلام

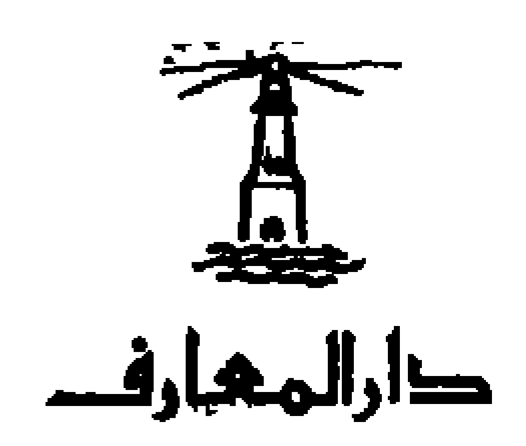
دار المعارف

كتابك (١٧)

رئيس التحرير: أنيس منصور

د. محمد بديع شريف

المساواة فى الإسلام



دار المعارف

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . م . ع .

كلمة

هذه رسالة موجزة مركزة تقدم صورةً واضحة لفترات متعاقبة ، عاشت البشرية فى فترة منها ضحية للأساطير والخرافات ، وذلت لأصنام مبتدعة تخيلها الشعراء والكهان وأبرزوها متمثلةً فى قوى الطبيعة : فى الرياح الهوج وعواصفها والبحار الضخمة وتلاطم أمواجها وفى كرة الشمس الملتهبة ونيرانها وتخيلوا صراعاً دائماً بين هذه القوى لنتاج الخير والشر والظلمة والنور وأطلقوا على هذه القوى أسماء تثير فى النفوس الرهبة .

واتخذ طواغيت الشعوب من هذه المسميات وسيلةً لإعلان ربوبيتهم ، واستغلوا الجماهير التى كانت تسير مسيرة قطعان الأغنام ، بل أضل سبيلاً .

كانت البلاد العربية ضمن نفوذ الدولتين : الروم والفرس ، فتسللت إليها الأصنام من معابد جوبيتر الرومانية ومن عقائد ميترا الفارسية . وكان طواغيت الدولتين يحمون هذه الآلهة المفتعلة ، فتتقارع سيوف جيوشهم فى سهول هذه البلاد ويحكّمون السيوف فى رقاب العباد

فيخربون وينهبون ويقتلون ويحرقون حتى يأتوا على الزرع والضرع ، فيعم الخراب فى البلاد ويسود الظلام . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى تدهورت حال الدولتين . وما رأت البشرية عهداً أسود فى امتهان كرامتها مثل هذه الفترة ولا رأت جوراً وظلماً مثل ما وقع فى هذا العهد .

وفى هذه الدجنّة الحالكة أخذ الفجر يقصّ رداء الظلام وبدأت الآمال تدب فى القلوب : قلوب أبناء مكة ، فبزغ فجر الإسلام بشعار « الله أكبر » « لا إله إلا الله » . « المؤمنون إخوة » « العدل أساس الملك » « كرامة بنى آدم » هدمت جملة الله أكبر عبادةَ جوبيتر ومزقت عقائد ميثرا وحلّ الأمن ونزلت السكينة ، وبدأ المؤمنون يجوبون البلاد ينشرون العدل والإخاء ، فرموا وجه الدهر وقصروا آماده وأنشئوا حضارة زاهرة زاهية فى أقل من ربع قرن لو احتفظت بها شعوب الأرض لاقتعدت الإنسانية مكاناً سامياً .

فى هذه الرسالة مادة يفتخر بها المؤمن ويكاثر دون حرج ، ويقول للعالم : « إن الإسلام جاء قبل أربعة عشر قرناً بنظام اجتماعى لم تتوصل إليه بعد النظم الحديثة فى خلق المجتمع الفاضل وتتراجع أمامه كل التيارات التى تنحدر إلينا مضادة لتقاليدنا وعاداتنا .

بديع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفصل الأول

تمهيد

الوثنية قبل ظهور الإسلام فى البلاد العربية وتأثير دولتى الروم وفارس على هذه البلاد

١ – مكة

كانت مكة مركزاً مهماً تفد إليها القبائل العربية من أطراف الجزيرة لتطوف حول الأصنام التى تدور بالكعبة وكانت قريش تشارك هذه القبائل فى عبادة الأصنام وإن كان منهم من يؤمن بالتوحيد الذى جاء به إبراهيم ، وكان للأصنام هُبل وأساف ونائلة واللاّت والعزّى ومناة مكانتها فى قلوب هؤلاء جميعاً ، وهى أحجار منحوتة إن لم تضر فهى لا تنفع ، ومع هذه الوثنية كانت عقائد ومذاهب تتخذ سبيلها إلى قلوب أبناء

الجاهلية فى مجاهل الجزيرة العربية كل بحسب اتصاله بمن حوله فى أنباء الدولة الرومانية والفارسية .

وكان لصناديد العرب من الصولة والجبروت ما لرؤساء الرومان وملوك الفرس ودهاقينهم ، وكان الشعر والأدب أبرز مظاهر الحضارة فى ربوع الجزيرة ، وكان لهم ندى فى مكة تولاه قُصىّ بن كعب سيد قريش فى أيامه . يقول التاريخ عنه إنه أول رجل أصاب ملكاً فى أولاد كعب أطاع له به قومه فكانت له الحجابة والسقاية والرفادة واللواء . بل هو أول من بنى داراً للندوة ، وكانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها ، وفيها يتشاورون فيما ينزل بهم من أمر ولا يعقدون ألوية الحرب إلا بها وفيها يبت فى عقود الزواج ، ولا يشترك فى هذه الأمور كلها إلا من بلغ الأربعين من العمر لأنهم كانوا يعتبرون أصحاب هذه السن مؤهلين للفصل فى مهمات الأمور .

وكان أمر قصىّ فى قومه يسير مسير الشريعة وكانت الرفادة خرجاً تخرجه قريش كل موسم من أموالها إلى قصى يصنع به طعاماً للحجاج يأكله من لم يكن له زاد ولا سعة ممن يحضرون الموسم ، وذلك لأن قصياً فرضه على قريش وقال لهم : « يامعشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم شراباً وطعاماً أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم . » ففعلوا ، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم

فيدفعونها إليه فيضعه للناس أيام منى . واتخذ أولاده هذه سنة من بعده ، ولما أصاب مكة جدب فى عهده خرج حفيده إلى الشام ومعه ما تجمع فى خراج قريش فاشترى به دقيقاً وكعكاً فنحر الجزور وطبقه وجعله ثريداً وأطعم الناس ، فسمى بذلك هاشماً لأنه هشم الثريد.. وجاء الإسلام وقريش تتخذ هذه عادة موسمية فأمضاها النبى ، ﷺ ، وأقام على ذلك أبو بكر والخلفاء من بعده . يقول الطبرى : «جرى ذلك فى الجاهلية حتى قام الإسلام ثم جرى فى الإسلام إلى أيامنا هذه [أيام الطبرى] وهى أواخر القرن الثالث الهجرى . ويمضى الطبرى فى قوله : «فهو الطعام الذى يضعه السلطان للناس حتى ينقضى الحج» .

ومع هذه الظاهرة الثقافية والحضارية كان الصنديد العظيم والصعلوك من القوم لا يتردد الواحد منهم أن يمرغ جبينه تحت قدم صنم منحوت من الحجارة ، فإذا نهض من بين يدى صنمه أوفى بنذره ورفع يديه يطلب العون والمغفرة .

٢ ـ الدول العربية فى سوريا

قامت فى سوريا ثلاث دول عربية قبل الإسلام هى : دولة الأنباط فى الجنوب ودولة تدمر فى الشمال وبينهما دولة الغساسنة فى الجولان .

(١) دولة الأنباط :

كانت بترا Betra أو البطراء عاصمة الأنباط ، وهى اللفظة اليونانية لكلمة صخرة ، قامت فيها حضارة زاهرة عربية فى لغتها ، هيلينية فى فنها وهندستها المعمارية التى أساسها عربى ، برع أبناؤها فى هندسة الرى وتجميع مياه الأمطار فازدهرت الزراعة واستقر البدو الرحل ، فأصبحت هذه المدينة الحصينة ملتقى القوافل التى تربط بين جنوبى الجزيرة العربية وبين أسواق الاستهلاك فى الشمال ، وكانت تسيطر على الطريق المؤدية إلى مرفأ غزّة فى الغرب وإلى بصرى ودمشق فى الشمال وإلى أيلة على البحر الأحمر وإلى الخليج العربى عبر الصحراء ، وكانت الوثنية هى العبادة الشائعة ، وعلى رأس الآلهة [ذو الشرى] وهو إله الشمس ولهذا الإله صلة باللات التى كانت الآلهة الرئيسة فى شبه الجزيرة العربية ، وجاءت الآثار باسم مناة والعزّى واحتمى ملوك هذه الدولة بالأصنام وادعوا الألوهية على غرار ما سوف نرى عند الرومان والفرس ، ولما اقتبس الأنباط أساليب الحياة عند الرومان غيروا أسماء الآلهة من العربية إلى الرومانية فأصبح ذو الشرى يسمى [ديونيسيوس] .

(ب) دولة تدمر :

قامت دولة تدمر حول نبع غزير فى قلب الصحراء فاستقرت حولها قبائل العرب ، فكانت فى القوة والمنعة بحيث لم يستطع الفرسان الروم اقتحامها ، فاتخذت من موقعها الممتاز نقطة التقاء للطرق التى تعبر الصحراء من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب ، وكان التجار التدمريون يقومون بالقسط الأكبر فى تجارة البحر المتوسط مع بلاد فارس والهند والصين ، فأنبتت هذه الدويلة العربية حضارة زاهية تقدمت فى الرى والصياغة ونحت التماثيل وبناء البيوت وإقامة المعابد للالهة الكثيرة المتنوعة التى تماثل أخواتها فى بابل ونمكة وفارس وكان الإله «بعل» سيد هذه الآلهة ، وكانوا يعتقدون أنه يسيطر على مصير الإنسان كما كان مسئولاً عن الآلهة السماوية ، وكانت اللات تعبد فى تدمر كما عبدت فى بلاد الغساسنة فيما بعد ، كما كانت تعتبر رئيسة الآلهة فى الجزيرة العربية .

(جـ) دولة الغساسنة :

من قبائل العرب الجنوبية ، رحلت عن اليمن حين تصدع سد مأرب وشقت طريقها إلى الشمال فاستقرت فى منطقة الجولان ، وكانت عاصمتها الجابية ، حمل الغساسنة معهم حضارة اليمن واستقبلوا الحضارة

التدمرية ، وكان أول ملوكها وأعظمهم الحارث بن جبلة (حوالى ٥٢٩ – ٥٦٩) ، كان ولاؤه لدولة بيزنطة التى اتخذت من دولة الغساسنة حاجزاً ضد دولة فارس . وكانت دولة الغساسنة فى أول عهدها وثنية تعبد اللات ثم اعتنقت المسيحية وأدركت الإسلام ، وفى آخر أيامها تجزأت إلى أقسام متعددة لكل قسم رئيس ، وكان آخر أمرائها جبلة بن الأيهم الذى وقف عام ٦٣٦ م ضد الجيوش الإسلامية فى معركة اليرموك التى انتصر فيها المسلمون على الروم ثم أسلم جبلة ، ومن فوائد هذه الدولة أنها نقلت إلى الحجاز كثيراً من المآثر الحضارية التى كان أهمها وأجلها الحروف النبطية التى انبثقت عنها الكتابات العربية .

(د) دولة اللخميين :

قامت هذه الدولة فى سهول الرافدين ، وكانت الحيرة عاصمتها ، وكان جيشها يقف على طول الحدود الغربية للإمبراطورية الفارسية حاجزاً بينها وبين بيزنطة ، وطالما وقعت الحروب بين اللخميين والغساسنة من جراء الخلافات التى كانت مستمرة بين الإمبراطوريتين ، ويظهر أن اللخميين كانوا يعبدون العزى ، فقد ذكر المؤرخون أنه فى عام ٥٤٤ أسر المنذر اللخمى أحد أبناء الحارث الغسانى فقدمه ضحية للعزى ، وبعد عشر سنوات انتقم الحارث لنفسه إذ قتل عدوه اللخمى فى المعركة الحاسمة التى

تعرف باسم « معركة حليمة » بنت الحارث التى دهنت جنود أبيها بالطيب قبل دخولهم المعركة .

ومن العبادات والعقائد الشائعة فى بلاد فارس عبادة الإله ميثرا Mithra إله الشمس ومنها تشتق الزرادشتية التى تؤمن بالصراع بين إله الخير وإله الشر ، وهى ديانة الأسرار التى يكون الانتساب إليها مقتصراً على أولئك الذين هيئ لهم مجالٌ للاطلاع على أسرارها ، فمن يبلغ آخر مرحلة الاطلاع فى ديانة الأسرار يبلغ الخلاص ويحيا حياة سعيدة ويسكن مع الآلهة بعد الموت . ولما كانت هذه العقيدة مجردة من السلطة عمدت إلى إيجاد بدع تصل أحياناً إلى الخلاعة لكى تكتسب شعبية . وعن هذا الإله ميثرا وعبادته ابتدع « مانى » عقيدته التى انتشرت فى هذه الربوع وهى عقيدة تجمع فى مضامينها عناصر مسيحية وبودية وزرادشتية انتشرت فى فارس وسارت حتى وصلت أسبانيا وضع قواعدها « مانى » المولود عام ٢١٦ فى بطائح العراق ونشر مذهبه عام ٢٤٦ م ويستند إلى شعارين أساسين : الخير والشر .

ويقول ابن النديم : « إن « مانى » فرض على أتباعه تعلم العلل والسحر والقيام بمهمتين : هما الشك فى الدين والاسترخاء والتوانى فى العمل ، كما تؤمن هذه العقيدة بالرجعة إلى الدنيا بعد الموت . وإلى جانب المانوية كانت المزدكية تنتشر سرًّا في ربوع الرافدين ومؤسسها مزدك ، وهى

تتفق مع المانوية بالشعارين اللذين مر ذكرهما ، وتؤمن بتفوق إله النور على إله الظلمة ، وتنفرد المزدكية باتجاهها الشيوعي بإباحة النساء والأموال ، وقد ظلت هذه العقيدة تمارس سرًّا إلى أن جاء الفتح الإسلامي وترجم ابن المقفع كتاب مزدك .

ومن المذاهب التي وجدت في بطائح العراق : **الغنوصية** "Gnossis" أي المعرفة السامية ، وكانت هذه العقيدة واسعة الانتشار في المملكة الرومانية وتستند إلى المعرفة ، أي إدراك كنه الأسرار الروحية التي تتاح للمختارين الذين مروا بمراحل تدريب النفس وتربيتها بحيث يمكن إنقاذ الروح في عبوديتها . والمؤرخون المسيحيون يعزون ابتداع الغنوصية إلى سيمون الساحر [أعمال الرسل ، ٨ ، ٩ وما بعدها] .

٣ – تأثير الوثنية في الفرد

انتشرت عبادة زفس أو جوبيتر التي تأسست في دمشق في البلاد العربية وبجميع الإمبراطورية الرومانية ، وكانت عبادة رفيقته أتار غاتس منافسة لإيزيس . وقد نقل الجنود والعبيد والتجار طقوس عبادة جوبيتر إلى أكثر البلاد الأوربية . وكان أخلص أتباع جوبيتر له الإله حدد ، وأتباع هذا الإله الحدادون الذين يحلون في أي مكان يجدون فيه الحديد فيقيمون

مصانعهم ويمارسون الفنون التى ورثوها عن آبائهم .

كما انتشرت عبادة إيزيس المصرية التى كانت تحتل مكاناً رفيعاً ، وانحدرت العقائد الفارسية يتبختر بها ميثرا إله الشمس الذى اشتقت من عبادته ديانة الأسرار والغنوصية والمزدكية والمانوية ، وشقت طرقها إلى البلاد الرومانية ، وبجانب ذلك كانت اليهودية والمسيحية . والفرد فى هذا الخضم المتلاطم من العقائد كان ينظر إلى الوثنية حقيقة واقعة لا مجال لنكرانها ، فإن نكرانها كفر وإلحاد ينال فيه عقاباً صارماً ، إنه يخشاها ويخشى غضبها لقد تمكنت فى نفسه عن طريق الشعراء والأدباء وتمسك بها ذوو السلطان وتألهوا . فأخافوا الفرد وخشى الفرد أن ينال بطشهم .

لقد انحدرت هذه العقائد فى مآثر الإغريق والرومان فى أصلاب الجماهير يتوارثها الأبناء جيلاً بعد جيل فلا ينصرفون عنها مهما حاول المرء إقناعهم . وحسبك أن تقرأ هذا الحوار الطريف من الأدب الإغريقى بين راع من غمار الجماهير ، وهو ميروس شاعر الإلياذة الشهير وكان الحوار فى سهل منبسط يرعى فيه الراعى غنمه .

الراعى يخاطب هوميروس :

إن الآلهة وأولاد الآلهة كانوا يجولون فى هذه البطاح ويكافحون لجلب الخير وطرد الشر ، وإنك تعلم أن السرور لا يعرف إلا بعد الألم

والعيد لا يكون إلا بعد انتهاء العناء ، فما كان قتالهم إلا إرشاداً لهاتين الجهتين وتعليماً لنا نحن معاشر الناس كيف نتذوق طعم الحياة . .

هوميروس للراعي :

وأنت أيها الراعي الذي ترعى غنمك مطمئنا وتعيش في أمان بمعزل عن شرار الناس أتريد أن تبدل بحياتك الهادئة تلك الحياة المضطربة المملوءة بالهموم المحاطة بالعوز واليأس ؟ أتريد أن تسلبك أخيل قطيع غنمك ؟ [أخيل – إحدى آلهة الإغريق] .

الراعي :

نعم لأنني أكون قد جبيت حياة طيبة ، فإن قصارى أملي أن أرى الآلهة فما أسعدها حياة !

هوميروس :

وا أسفاه ! إن هذه الآلهة المزعومة ما عاشت وكذلك باتروكليس وأوديسيوس وأياكس وتستور ، كل أولئك ما عاشوا ولا كانوا

الراعي :

من أنت ؟ وكيف تستطيع أن تفوه بهذه الوقاحة . ؟

هوميروس :

أنا هوميروس الذي تخيلهم .

لراعى :

كيف تكون أنت هوميروس وتكون أنت الذى نظم هذه القصيدة المشهورة ، وكل أولئك من صنع خيالك وأنهم ما عاشوا ولا كانوا .

هوميروس :

انظر إلى السماء فإنك لا تجد إلا فضاءً فارغاً ، وانظر إلى الشمس فإنك لا ترى إلا كرة ملتهبة ثم مد بصرك إلى البحر فلن ترى غير أمواج تتلاطم ، لقد خلقت لك آلهتك من الماء المتموج والهواء الفارغ ثم أصبح كل ذلك حقيقة لا غبار عليها ، وإن ما قيل فى ذلك كان جهالة جهلاء وضلالة عمياء .

لقد انتهى الحوار بين هوميروس الشاعر الخالد والفيلسوف الكبير وبين الراعى النابت فى غمار الجماهير الذى أصبح اعتقاده فى الآلهة حقيقة راسخة لا يستطيع هوميروس نفسه تحويله عنها . لقد كان هوميروس وقحاً صلفاً معتدياً أثيماً فى نظر الراعى ، لأنه جحد الآلهة وسفه أحلام آباء الراعى وادعى باطلاً أنه هو الذى خلقهم .

هزئ هوميروس بالراعى ولكن الراعى ظل راضياً بعبوديته للسلطان الجبار الذى احتمى بها ونحت لها أصناماً يواجه بها الجماهير ويدعى أنه هو الإله الذى يستعين بهذه الأصنام المنحوتة والمسلات القائمة على حماية الرعية واستغلالها واستثمارها ، هذه هى الآلهة التى كان ملوك الرومان

وملوك الفرس تحت راياتها يعزى بعضهم بعضاً فيمتلكون المدن ويهدمون المعابد ويجردونها من حليها ، بها يأسرون وينهبون ويقتلون ويعاقبون ويقع الفرد سلعة تباع وتشترى وضحية توفى بها النذور ، كانت شعارات جوبيتر تتقدم رايات الرومان وكانت شعارات ميثرا تتقدم رايات فارس ، والإنسانية تتعذب وتتحطم تحت أقدام هذه الوثنية الظالمة كما سنرى .

٤ ــ الوثنية الرومانية وتأثيرها فى أوربا والبلاد العربية

عندما وقع الحريق الذى دمر قلب مدينة روما عام ٦٤ م ألقى نيرون التهمة على المسيحيين فأمر بإبادتهم جميعاً ، وصار كلما وقع حادث مشئوم فى المدينة نسب وقوعه إلى وجود المسيحيين فينزل بهم عقاب الموت إرضاء لجوبيتر .

ولما ارتقى فسباسيان عرش روما بعد وفاة نيرون عهد إلى ابنه تيطس بإنهاء الحرب مع اليهود عام ٧٠ فحاصر تيطس مدينة القدس وشدد عليها الحصار مدة خمسة أشهر ، فلم ير اليهود بدًّا من وضع ميثاق بينهم مؤداه أن يقتلوا أطفالهم ونساءهم ثم يقفوا أمامهم فيضرب بعضهم رقاب بعض بطريق القرعة ، كل ذلك خوف من العذاب العنيف الذى ينتظرهم على أيدى جنود تيطس . هدم تيطس معبد اليهود عن آخره بحيث إن

الناس لم يعودوا يعرفون أن المعبد كان قد بنى على الربوة الشرقية أو الربوة الغربية فى أورشليم . ولم يمكن إعادة بنائه استناداً إلى وصف التوراة . ويقدر عدد اليهود الذين أبادهم تيطس بمليون يهودى ، أما الذين وقعوا أسرى فقد أجبروا على أن يقتل أحدهم الآخر أو يتركوا للصراع مع الحيوانات المفترسة . ومنذ ذلك العهد زالت دولة اليهود وصاروا شعباً بدون وطن . وكان الاضطهاد يلاحق اليهود أينما حلوا . فقد حدث اضطهاد عنيف عام ٩٥ م فى عهد دوميتيان ، وكان موجهاً بصورة خاصة ضد اليهود ووقع أيضاً على المسيحين ، وفى عام ١١٢ أصدر تراجان مرسوماً ينص على معاقبة المسيحيين الذين يرفضون تقديم المراسيم للآلهة والإمبراطور واعتبارهم فى هذه الحالة خونة وكانت عبادة الإمبراطور التى أنشأها أغسطس أكثر عبادات الدولة انتشاراً .

وفى أعوام ١٣٢ – ١٣٥ رفع راية الثورة يهودى ادعى أنه المسيح المنتظر Bar coba أى ابن الكوكب ، فخنق هادريان الثورة فى مهدها وقضى عليه وحول المدينة إلى ركام ودمر جميع القرى اليهودية ويقدر عدد القتلى ب(٨٥٠ ألفاً) وأبدل هو بالمعبد القديم معبداً لجوبيتر وأطلق اليهود على ابن الكوكب اسم Bar Coziba أى ابن الكذب .

وفى عام ٢٥٠ – ٢٥١ أمر ديقيوس Decius بمعاقبة كل من يرفض القيام بالعبادة الرسمية للآلهة . وفى عام ٢٥٧ – ٢٥٨ م أمر فالريان

المسيحيين أن يقدموا الذبائح للآلهة علناً ومنعهم من الاجتماعات ، فاضطر بعضهم إلى ترك عقيدته .

وفى ستهل القرن الرابع أصدر دوكليتيان مرسوماً ينص على محو كنائس المسيحيين وحرق كتبهم وطردهم من الوظائف المدنية والعسكرية ، وقد ساعد على هذا الاضطهاد تقارير كهنة الوثنية المرفوعة للإمبراطور ضد المسيحيين ، ويذكر أن هذا الاضطهاد استمر عشر سنوات ابتكرت فيه وسائل رهيبة فى التعذيب ، ويقال إن كثيرين فى الجزيرة العربية من المسيحيين ذبحوا بالفأس ، وفى أنطاكية شويت أجسامهم بالمشواة . وكان النساء يرمين أنفسهن فى نهر العاصى تخلصاً من الاغتصاب ، وأقام الإمبراطوريون عموداً للنصر يفتخرون بهذا لاضطهاد ويكاثرون بما أتوا من أعمال العنف والتعذيب ، وأنهم أبادوا اسم المسيحيين ومحوا خرافتهم وأعادوا عبادة الآلهة إلى سابق عهدها .

٥ – الفرس والروم

بينما أخذت عبادة جوبيتر تتراجع إلى الوراء وتتلاشى من الوجود فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، وبينما كانت المسيحية تتنفس وترى وجه الشمس ، زحفت جنود الدولة الساسانية المتاخمة لحدود الإمبراطورية

الرومانية تستظل بشعارات الإله ميثرا إله الشمس ليجتاح سورية ، فاستولت على حلب وأشعلوا فيها النيران حيث لم تستطع دفع الجزية التى طلبت منها ، ثم ساروا إلى أنطاكية فاستولوا عليها ونهبوا كاتدرائيتها وجردوها من كنوزها الذهبية والفضية وسلبوها زخارفها الفاخرة وهدموا المدينة بكاملها وأخذوا أهلها أسرى ، فأرسلوا إلى المدائن فى سهول الرافدين . ويقال إن ملك الفرس بنى لهم مدينة بالقرب من المدائن وغزت الجنود دمشق وروعوا أهلها قتلاً وأسراً ومشوا إلى بيت المقدس وهدموا كنيسة القيامة وانتزعوا الصليب الحقيقى ، لقد استباح جنود فارس المدن والقرى وأشاعوا فيها الرعب وأخذوا يسخرون من الشعائر المسيحية ويخربون الكنائس أينما حلوا يذبحون سدنتها وأتباعها حتى قدر عدد فى ذبيح من المسيحيين بمائة ألف ، وأقام جنود فارس معابد ميثرا فى كل مكان وتعالت المجوسية فى أرجاء سورية وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار . لقد سيطرت راية الدولة الساسانية على العراق والشام وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى ، واختفى العلم الصليبى من هذه الأماكن كلها ، لقد ضاع من الدولة الرومانية فى الشرق كل ما تسيطر عليه ، وفى استمرار هذه الحروب الطاحنة انهارت الحياة الاقتصادية وساد القحط وتفشت الأمراض وساد البؤس واليأس أرجاء البلاد .

وعندما استولى ملك فارس على بيت المقدس كتب إلى هرقل :

من الإله كسرى أكبر الآلهة وملك الأرض جميعها إلى عبده الذليل هرقل ، إنك تزعم أنك مؤمن بإلهك وواثق به فإن كان ذلك كذلك فلماذا لا يتقذ إلهك القدس من يدى ؟

وفى عام ٦٢٨ م اشتدت شوكة الرومان فأعاد هرقل الكرة على الفرس واستطاع أن يسترجع سورية ومدينة الرها فى شماليها ، وفى عام ٦٢٩ م أعيد الصليب إلى القدس .

٦ – العرب والفرس فى سهول الرافدين

مر بنا أن دولة اللخميين كانت موالية للفرس وكانت تقوم مقام الحاجز بين دولتى الروم وفارس وطالما وقعت بينها وبين دولة الغساسنة الموالية للروم اشتباكات من أجل مصالح الدولتين ولكن جور الفرس على البلاد العربية لم ينسه العرب وخاصة ما كان يقوم به سابور الذى كان يسمى (سابور ذو الأكتاف) لأنه كان يخلع كتف عدوه إذا وقع بيده أسيراً . لقد انتهز العرب قوة الروم وضعف فارس فأعانوا الروم على فارس ، وفى منتصف القرن السادس الميلادى كتبت قبائل بكر بن وائل صفحة جديدة فى تأريخ علاقة الفرس بالعرب فى موقعة ذى قار الشهيرة حيث كان انتصار العرب فيها على جنود فارس حاسماً

٧ – عرض وتحليل لما مر

فى هذا العرض الموجز الذى مر بنا نجد صورة واضحة المعالم لما كان يجرى فى قلب الجزيرة العربية وما يجرى فى سهول الرافدين وربوات سورية وما كانت تعانيه البشرية من عناء تحت ظلال الوثنية الممثلة بالأصنام المنحوتة ، وما كان يقوم به أهل السلطة والقوة فى تقمصهم قوة الآلهة وتعاليهم على الفرد فى استثمار إنتاجه واستغلال عضله فى استرقاقه وإذلاله واتخاذه سلعة تباع وتشرى ، وما كان يقع عليه من عقاب وتعذيب لا لشىء إلا أنه صد عن صنم منحوت يصبو إليه الملك ويتقمص به قوة الألوهية . الفرد موجود لكنه معدوم الحرية مسلوب الإرادة . والسلطان بيده صولجان الحكم ، إنه إله يعبد والصنديد يمتلك الرقيق والمال . والذلة شعار غمار الجماهير والخرافة سائدة تغمر الكثرة الجاهلة والمشعبذون يأكلون أموال الناس بالباطل ، وفى كل حين يظهر مذهب وتنبثق عقيدة فيثور طواغيت الحكام لمحوها وإخماد أنفاس معتنقيها ، وهكذا انهارت القيم الإنسانية واختفت كرامة بنى آدم من بين كثير من المجتمعات ، وأصبح الناس يتطلعون إلى المنقذ والمخلص . لقد قضت روما على الدويلات العربية الثلاث : الأنباط وتدمر والغساسنة ، وأدمجتها فى

إمبراطوريتها وجعلتها ولايات تابعة ومزقت دولة الغساسنة منها وجزأتها إلى أجزاء لكل جزء منها رئيس ، وفى سهول الرافدين جار ملوك الفرس على العرب الساكنين فى هذه السهول ، بل طغوا على جميع البلاد العربية وكانت فارس تموج بالعقائد التى انبثقت عن عبادة ميثرا إله الشمس فتمكنت المجوسية فى البلاد وانتشرت عبادتها حتى عبرت الحدود إلى المملكة الرومانية وانطلقت الإباحية المزدكية وما نوية « مانى » المنبثقة عن ديانة الأسرار وسادت الغنوصية ، وهكذا اشتبكت تيارات العقائد تمر بالمجتمعات فتربكها وتستذل الفرد المسكين المغلوب على أمره ؛ فى هذه الغمرة الغامرة برزت للوجود عقيدة جديدة بعثتها العناية الإلهية لإنقاذ البشرية ، شعارها العدل والمساواة والإخاء وكرامة الإنسان . هى العقيدة الإسلامية التى جاء بها القرآن الكريم .

الفصل الثانى

الإسلام والمساواة

(أ) القرآن الكريم

القرآن دستور الإسلام لنظام الحكم فى عهد النبوة ومنبع التشريع الإسلامى فيما بعد ، معجزة النبوة فى الفصاحة والبيان والمثل الأعلى فى سمو الأسلوب وسبك الآيات . تكاملت سوره وآياته فى ثلاث وعشرين سنة ، منها ثلاث عشرة سنة فى مكة اكتملت فى أثنائها ثلاث وتسعون سورة وعشر سنوات فى المدينة تكاملت فيها السور الباقية وكانت آيات القرآن تنزل متفرقة بحسب مقتضيات الأحوال وما يتطلبه المجتمع الإسلامى ، والآيات التى اكتملت فى مكة اتخذت سبيلها فى الدلالة على وحدانية الله وصفاته والدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك والتنديد بالأحجار المنحوتة وتبصرة الناس بأنفسهم وفى خلق السموات والأرض وحثهم على الالتفاف حول النبى والإيمان بالله وحده والبشرى بحياة سعيدة فى الدنيا والآخرة .

أما الآيات المدنية فقد اتخذت سبيل التشريع وتثبيت نظام المجتمع ،

فتحددت بذلك أركان العبادات وشرعت حقوق الأسرة فى الميراث والزواج والطلاق وعتق الرقيق وبث روح المودة والمحبة بين الأبناء والآباء وبين الزوج والزوجة وبين أفراد الأسرة جميعها ووضعت قواعد المعاملات وشرعت الحدود الجنائية والخروج على النظام العام وحرم شرب الخمر ولعب القمار وتعاطى الربا ووضعت الأحكام المتعلقة بالغزوات ، وتبع ذلك معاملة الضعفاء برفق ولين . وصفوة القول : كانت هذه التشريعات بمثابة إعلان حقوق الإنسان .

(ب) مشرق الدعوة

مكة والوحى السماوى

كانت الأمانة من صفات محمد ، وكان يسمى الأمين قبل الرسالة ، فهو الذى ارتضته قريش قبل مبعث النبوة فى إزالة الخلاف بين القبائل عند بناء الكعبة ، وظلت الكعبة جليلة القدر فى عين محمد ، وظل رجاؤه معلقاً بها أن تكون يوماً من الأيام قبلة الأمة الجديدة التى ستخرج على العالم بدين جديد ، فاستمر يتردد عليها ويطوف بها وينظر إلى الأصنام الجاثمة حولها فيشتد حزنه على قومه فيتركها وينحدر إلى بطن مكة ثم يصعد

إلى الربى والجبال حتى أَلِفَ العُزْلَةَ واستَرْوَحَ فى الصعود إلى ذروة جبل النور وهو جبل شرق مكة شامخ الذروة ينتشر على جنباته الصخر الأحمر ويرتفع حتى يصل إلى ذروة لا تجدُ فيها نبتة ، فيه غار حِراء مأوى التعبد والعزلة ، ومهبط الوحى الإلهى الأول .

لقد اختار محمد هذا الجبل الصعب المرتقى لأن الأمانة التى سيحملها إلى البشرية كانت ثقيلة وصعبة ، فكأن العناية الإلهية أرشدته ليتمرن ويتدرب على حمل الشدائد واقتحام العقبات . لقد أراد محمد أن يكون فى الذروة لتكون الكعبة تحت ناظريه ولتكون مطمح الذين يؤمنون به ومنطلق ناشرى رسالة السماء .

اتخذ محمد غار حراء مثوًى له يتحنث فيه شهراً فى كل عام ويأتى أهله إليه فى الفينة بعد الفينة يزودونه بالزاد ويطمئنون عليه ويجتمع إليه الفقراء فى وضح النهار ثم يتركونه .

لقد كانت هذه العزلة مبعث الصفاء فى روحه والإرهاق لعقله ؛ والنفس الصافية تستشف حجب الغيب وتنفذ إلى ما وراء الأفق وحسبك أن ترىَ ذلك فى نفسك ، فإن صفاء الذهن وراحة الفكر يبعثان صفاء الفكرة ويهيئان للمرء مجال الإبداع . والفكر الصافى ينبوع الحياة الجميلة ، والعباقرة فى العالم هم أصحاب الذهن الصافى الذين جملوا الحياة بالأدب والفن والعلم والتشريع ، ولهذا اختارت العناية الإلهية

محمداً ليقدم للعالم هذا القرآن المجيد وهذه الشريعة الغراء .

وفى ليلة مباركة فى شهر رمضان حين بلغ محمد الأربعين من عمره نزلت أول سورة من القرآن الكريم هى سورة العلق المفتتحة بقوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسانَ من عَلق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » . (صدق الله العظيم) فرددها محمد فى نفسه وقبلها برحابة صدر وسعة أفق فكان هذا الارتضاء هو العقد الإلهى الأول بين السماء والأرض ، هى الرسالة الأولى فى غار حراء وأول براعة استهلال فى مجد هذا الدين الجديد . إن القراءة والكتابة مفتاح الحضارة وباب المعرفة والطريق اللاحب لتكوين العقل وتهذيب النفوس وتربية الغرائز والتوجيه الصحيح .إن محو الأمية الخطوة الأولى فى آفاق العلم ومعرفة أسرار الكون ، وهذه أول وثيقة كتبت لخلود هذا الدين الجديد .

عاد محمد إلى داره فتلا سورة العلق على زوجه خديجة بنت خويلد وهى من كرائم العقائل فى صفاء القريحة وحدة الذهن ، فلما أتم كلامه تهلل وجهها وكانت قد اكتشفت فى زوجها مجموعة من فضائل العبقرية فقالت له : «إنك جدير بحمل هذه الأمانة فما بالك تخشى وأنت تصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدى الأمانة وتحمل الكلّ وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ؟» ، وخرج محمد من داره يطوف بالكعبة ويناجى ربه

وينظر إلى الأصنام يراها تتهاوى وتخرّ إلى الأذقان وتنتظر ساعة الزوال يتخيلها ترنو إليه ، ويرى فيها عنوان الذلة وينتظر اليوم المجيد الذى تتحطم فيه هذه الأحجار التى ربطت عقول صناديد العرب ودهمائهم فلا تستطيع الانطلاق فى فضاء واسع ، هذه الأحجار المنحوتة لم تكن غير بِدَع مَبتدعٍ تنتمى إلى جوبيتر وميثرا فى مملكتى الروم وفارس ، تلك الأصنام التى تقارعت سيوف عابديها حول الجزيرة العربية فأوردت الناس موارد الهلاك ونشرت البؤس والشقاء بين بنى آدم ، وأتاحت للملوك والرؤساء اتخاذ صفات الألوهية لتعبدهم الرعية فيستحلوا دماءهم وما يملكون . وفى ساعة مباركة نزل الوحى الإلهىّ بسورة المدثر : «يَـأَيُّها المدَّثِّر قُم فَأَنْذِر ، وَربَّك فكبِّر ، وثيابَكَ فَطهِّر ، والرُّجز فاهْجُرْ ولا تَمنُنْ تَسْتَكْثِر» .

* * *

بدأ محمد (ﷺ) يدعو الناس إلى التوحيد ونبذ الشرك ، ونبذ عبادة الأصنام مستنداً إلى هذا الأمر السماوى «قم فأنذر» فتقدم إلى الناس بثبات وعزم صادق وقال مخاطباً أقرب الناس إليه : «يا معشر قريش إن الرائد لا يَكْذِبُ أهله ، والله لو كذبتُ الناسَ ما كذبتكم ، ولو غَرَرْتُ الناس ، ما غررتكم . والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم وما أعلم أحداً جاء قومه بمثل ما جئتكم به ، لقد جئتكم بخير الدنيا

والآخرة ، وتلا قوله تعالى : « قل إنّما أنا بَشرٌ مِثْلُكُمْ يوحى إلىّ أنّما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » [الكهف : ١١٠] تقدم النبى إلى الناس بأنه مثلهم ولا يخالفهم فى شيء إلا فى أمر واحد ، كونه رسول الله يُوحى إليه ليرشد الناس ويهديهم الطريق المستقيم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، لا يريدلهم إلا الخير ونبذ هذه الذلة الممقوتة فى عبادة الأصنام ، إنه يريد لهم السموّ فى الحياة للارتفاع إلى معرفة القوة الإلهية التى تدبر هذا الكون ، إنه يريد أن يرتفع بهم عن التمرغ على أقدام الأحجار المنحوتة التى لا تفهم ولا تعى ، فأخذتهم العزة بالإثم وقالوا : إنه يريد أن يسفّه أحلامنا ويصرفنا عما كان يعبد آباؤنا من قبل ، وقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ، قيل إن أحدهما عروة بن مسعود الثقفى من الطائف والآخر الوليد بن المغيرة من مكة ، وهما من صناديد قريش وجبابرتهم الذين يتشبهون بجبابرة الفرس والرومان عبدة الأصنام . واشتد غيظ القوم وزاد أذاهم ، ولكن محمداً (ﷺ) استمر فى دعوته بعزم ثابت مستنداً إلى العناية الربانية التى كانت ترشده وتأمره أن يأخذ الناس بالحسنى : « ادْعُ إلى سَبِيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنَةِ وجَادِلْهُم بالتى هى أحْسنُ إن ربّك هو أعلَمُ بمن ضَلّ عن سَبِيلِهِ وهو أعلم بالمهتدين » [النحل : ١٢٥] وهجر النبى مكة إلى المدينة وجاءته الوفود

وكان يسير فى مجالس القبائل يدعو الناس إلى خير الإنسانية ، وحسبك أن تقرأ هذا الحوار اللطيف لتتبين كيف كان النبى ، ﷺ ، يحاور قومه .

(حـ) الحوار

رافق أبو بكر وعلى بن أبى طالب رسول الله (ﷺ) فى سيره ثم انتهوا جميعاً إلى مجلس من مجالس القوم ، عليه السكينة والوقار ، وإذا مشايخ لهم أقدار وهيئات فتقدم أبو بكر فسلم وقال ممن القوم ؟ قالوا : من شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله (ﷺ) ، وقال : بأبى أنت وقومى ، ليس بعد هؤلاء من عزٍّ فى قومهم ، وهؤلاء غُرَرُ فيهم » ، وكان فيهم مفروق بن عمر وهانئ بن قبيصة والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك ، وكان مفروق أدنى القوم مجلساً من أبى بكر ، فقال له أبو بكر : «كيف العدد فيكم ؟ » فقال : إنا لنزيد على الألف ولن يغلب ألف من قلة ، فقال أبو بكر : «كيف المَنَعَةُ فيكم ؟ »

فقال : إنا أشدُّ مانكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا مرة . ولعلك أخو قريش !

فقال أبو بكر : «إن كان بلغكم أنه رسول الله فها هو ذا» !

قال مفروق : «قد بلغنا أنه يذكر ذلك» ثم التفت إلى الرسول ، فجلس وقام أبو بكر يظله بثوبه .

فقال رسول الله : «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله ، وأن تؤدوا الأمانة وتنصروني حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به ، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد» .

قال مفروق : وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله (ﷺ) قوله تعالى :

« قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حرّم ربُّكم عليكم ألا تشركوا بِه شيئاً وبالوالِدين إحساناً وَلاَ تَقْتُلوا أوْلاَدَكمْ من إمْلاقٍ نحنُ نَرْزُقُكُم وإيّاهمْ ولا تقْرَبوا الفواحِشَ ما ظَهَر منها وما بَطَن ولا تَقْتُلوا النّفْس التي حرّمَ الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لَعلّكمْ تَعْقِلونَ ، ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه وأوْفوا الكيْلَ والميزَانَ بالقِسْطِ لا تكلف نفساً إلا وسعها وإذَا قلْتمْ فاعْدِلوا ولَوْكانَ ذا قرْبى وبِعَهْدِ اللهِ أوفوا ذَلِكم وصّاكُمْ به لعلَّكم تذكّرونَ . وأن هذا صِراطي مُسْتقيماً فاتّبِعوهُ ولا تتّبعوا السُّبلَ فَتَفَرّقَ بِكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . »
[الأنعام / ١٥١–١٥٣] .

قال مفروق : وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟

فتلا رسول الله قوله تعالى :« إنّ الله يأمُرُ بالعدْل والإحسانِ وإيتاءِ ذِى ٱلْقُرْبَى وَينهَى عن الفحشاء والمنكر والبغى يَعِظكُمْ لَعَلّكُمْ تَذَكّرونَ . » [النحل : ٩٠] .

أدرك مفروق أن النبى لا يعنى بقوله إلا مقاومة ذلك الجبروت وذلك البغى الذى تدور دائرته على الإنسانية فى بطن الجزيرة العربية وما حولها ومقاومة تلك السبل ، أى التيارات المتضاربة فى المعتقدات الكثيرة المتفرعة عن عبادة الأصنام المفتعلة وتأليه ذوى السلطة الذين لا يتورعون عن إتيان المنكر والفحشاء واستغلال الجماهير استغلال عبودية وذلة .

قال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك . وكأنه أحبّ أن يشركه فى الكلام هانئ بن قبيصة فقال : هذا هانئ بن قبيصة شيخنا .

قال هانئ : « قد سمعتُ مقالتك يا أخَا قريش وصدَّقْتُ قولك . وإنى أرى أن ترك ديننا لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر . زلة فى الرأى وطيشة فى العقل وقلة نظر فى العاقبة ، وإنما تكون الزلة مع العجلة وإن من ورائنا قوماً نكره أن نعقد عليهم عقداً لكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر ، وكأنه أراد أن يشركه فى الكلام المثنى بن حارثة . فقال : هذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا .

قال المثنى : قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش

وأعجبنى ما تكلمت به ، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة .

ولما تم المجلس نهض رسول الله قابضاً على يد أبى بكر والتفت إلى على وقال :

« يا على ، أى أخلاق للعرب فى الجاهلية ؟ ما أشرفها ! بها يتحاجزون فى الحياة الدنيا » .

(د) العودة إلى مكة وتحطيم الأصنام والبيان الأول فى المساواة بين الناس

فى ظلال الدعوة والمجادلة بالحسنى والترفق بالقوم مع الدفاع عن العقيدة الجديدة وتوافد الوفود من القبائل إلى المدينة لتفهم مبادئ الإسلام وأهدافه ، قويت شوكة المؤمنين : ودخلوا مكة وأعلن محمد (ﷺ) على الملأ البيان الأول فى المساواة والإخاء بين الناس جاء فيه :

« من دخل البيت كان آمناً ومن دخل دار أبى سفيان كان آمناً ، وكانت داره بأعلى مكة (وأبو سفيان كان من أشد الناس معارضة لرسالة الإسلام فى الجاهلية) ومن دخل دار حكيم وكانت بأسفل مكة فهو

آمن ، وأغلق الناس أبوابهم وألقوا السلاح ، ومضى موكب النبى إلى الكعبة فاستلم الحجر وطاف ، ووقف فى جمع من أهل مكة وقال :

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده. وهزم الأحزابَ وحْده ، يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم خلق من تراب ، وقرأ الآية : «يأيُّها الناس إنا خلقناكم مِنْ ذَكر وأنْثى وَجَعْلناكم شعوباً وقَبَائِلَ لِتعارفوا إنّ أكرمَكمْ عِنْد اللهِ أتقاكمْ ، إن الله عَليم خبير» ، [الحجرات : ١٣] . ومشى النبى (ﷺ) إلى صنم جاثم بجانب الكعبة فجعل يطعن عينيه ويتلو ؛ « وقل جَاءَ الحقُّ وزَهقَ البَاطِلَ إن الباطِلَ كان زَهُوقاً» [الإسراء : ٨١] .

وتسابق المسلمون إلى الأصنام فجاءوا بها إلى الأرض كسراً وتحطيماً . احتضن محمد الكعبة عند الملتزم ونظر إلى الأصنام تتهاوى وإلى كلمة الله. تعلو وإلى نخوة الجاهلية فى العصبية والتفرقة تلوذ فراراً وامتلأت قلوب الناس بالمساواة وأخذت تتفتح إلى استقبال تشريع جديد وبناء مجتمع فاضل فى ظل عدالة وإخاء .

اطمأن الناس لهذا الفتح المبين ، ونزلت السكينة على قلوب المؤمنين ، وعم الأمن أرجاء البلاد ، ووفد المهاجرون والأنصار من المدينة والتحقت بهم القبائل تحت إمرة أبى بكر أول أمير للحج ، وأخذ

المسلمون يطوفون بالكعبة وبدأت مكة والمدينة بالتبشير لعالم جديد وإنسانية مكرّمة .

الأصول التى جاء بها الإسلام بالمساواة

١ - النداء الأول الذى هدم الطبقية بين الناس

الله أكبر

نَعَمْ : الله أكبر أول جملة فى نداء الأذان صعد بها سطح المسجد بلال الحبشى فى مشرق الدعوة الإسلامية يعلن ركناً من أركان الإيمان ، نعم ! الله أكبر من كل أبيض وأسود ومن كل جبار عنيد ومختال فخور ، جملة هزت المجتمع العربى فى الجزيرة فتململت أحجار الأصنام ثم تقوضت وانهارت ، وانهار معها الجبروت الإنسانى . وأشرقت كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » ما أروعها جملة يسمعها الإنسان فيطرق رأسه ثم ينعم النظر فى الوجود وفى نفسه ، فلا يرى صغيراً ولا كبيراً غير تلك القوة المبدعة التى أبدعت هذا الوجود ودعا إلى الإيمان بهامحمد (ﷺ) ، لقد كانت لفتة الإسلام موجهة من العناية الإلهية أن يقوم بلال الحبشى الرقيق

الأسود فى الجاهلية الذى اشتراه أبو بكر من صناديد قريش فأعتقه ووقف بجانبه موقف الند للند تحت شعار «إنما المؤمنون إخوة» وأن يأمره النبى (ﷺ) فينادى بأعلى صوته «الله أكبر» أيها الصناديد الجبارون ، ويمضى بلال فى إتمام الأذان يدعو إلى التوحيد وإلى إقامة الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ويحث على العمل والكسب .

أعلنت كلمة التوحيد من أعلى المسجد ورنت فى آذان الإنسانية فتقبلتها الفطرة السليمة دون تردد ، ذلك لأن الإيمان بإله فيما وراء الطبيعة لا تدرك كنهه الأبصار ولا يقاس بمقاييس البشر أتمّ وأصدق وأقبل للعقل من الإيمان بمعبود منحوت من الحجر ناقص تستطيع رياح الطبيعة وأمطارها أن تأكله أو تترك فيه الأخاديد فلا ينطق ولا يسمع ولا يعقل ، فارتفع المؤمن من حمأة الشرك والتمرغ على قدم صنم منحوت من الحجر والصوان والرخام إلى عبادة رب لا يقصد فى الحوائج غيره ولا يصمد إلى أحد سواه .

حرر الإسلام الفكر من عبودية الأرض وكسر فيها قيود الذلة وسما بالنفوس إلى عالم ما وراء الطبيعة وإلى التفكير فى الكون الواسع إلى المخلوقات العظيمة التى لم يكن الإنسان فيها إلا ذرة .

فى هذا التفكير كفاية لسمو النفس وترفعها ، وبهذا السمو تطمح نفس المسلم إلى الاستزادة فى الكمال ، وكلما طمحت النفس إلى

الاستزادة تقدمت إلى الأفضل فالأفضل ، وبمثل هذا الروح أخذ المجتمع الإسلامى يتطور وينمو ، يغترف من معين شريعة لا ينضب لأنها تستند إلى العدل . لقد تحطم بجملة « الله أكبر» وجملة التوحيد « لا إله إلا الله » ميثرا آله المجوسية التى تعتقد إله الخير وإله الشر ، واختفى « جوبيتر» ومن معه من الآلهة .

٢ – كرامة الإنسان

ضمن القرآن كرامة بنى آدم وأعلنها فى سوره وآياته ، وجاءت فى نصوص التشريع ، فهو المفضل على كثير من المخلوقات فى هذا الكون . إننا فى كون محدود يدور فى فلك محدود أيضاً وحولنا عوالم وأكوان ولكننا لانزال نبحث وندرس ونعمل لنتصرف فى هذه العوالم بحسب قدرتنا وطاقتنا المحدودة التى كرمنا بها مبدع الوجود وأوجب علينا أن نحترم أنفسنا ونصون الكرامة فلا يبغى أحد على أحد . فالإنسان المؤمن فى نظر القرآن إنسان كريم حر مبدع جهزته العناية الإلهية بقوى وأجهزة يستطيع بها أن يعمل فى البر والبحر ، يكسب أطايب الرزق بجهد وكسب حلال . غير أن فى القرآن لفتة كريمة ، تلك هى تفضيل بنى آدم على كثير من الكائنات دلالة على أن هناك من هو أفضل منه لا يزال بعيداً عن معرفة

الإنسان نفسه وفيه إشارة إلى أن يتنافس بنو آدم فى كسب الفضيلة علماً ومالاً ومحبة ورحمة لعلهم يصلون إلى مكانة رفيعة من تلك الأمكنة التى لا تزال خافية عن مقدورهم . قال تعالى : «وَلَقَدْ كَرَّمنَا بَنِى آدَمَ وحملْناهم فى البَرّ والبحرِ ورزَقْناهم مِنَ الطّيبات وفضّلنَاهمْ عَلى كَثِيرٍ مِمّنْ خلَقْنَا تَفْضيلاً . » [الإسراء : ٧٠] .

٣ – العدل

ذكرت لفظة عدل ومشتقاتها فى سبعة وعشرين موضعاً من القرآن ، فالعدل عنوان الحضارة والأمة التى يسود فيها العدل تسود فيها المساواة وتنمحى الفوارق فى الجنس واللون والزمان والمكان ويزول الظلم والعدوان والعبودية وامتهان كرامة الإنسان فإذا سادت الشريعة اطمأن الناس على أموالهم وأعراضهم . وعند وقوف اثنين أمام قاضٍ عادل يعمل بشريعة الله يختصمان فيستمع إليهما ويصدر حكمه عليهما فيأخذ أحدهما كتابه بيمينه والآخر بشماله ، فهذه هى المساواة بكاملها ، قال تعالى : « يَاأَيُّها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالْقِسط ولاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قومٍ عَلَى ألاّ تعدِلوا ، اعدلوا هو أقرب للتّقْوَى واتّقوا الله إن الله خبير بمَا تَعْملون» [المائدة : ٨] .

وقال تعالى : «إنّ الله يأمركم أنْ تؤدّوا الأمَانَاتِ إلَى أهْلِها وإذَا حكَمتمْ بينَ النّاسِ أنْ تحكموا بالعَدْلِ إنّ الله نِعمَّا يَعِظُكمْ به إنّ الله كَانَ سميعاً بَصِيراً» [النساء : ٥٨] .

«اعْدِلُوا هو أقْرَبُ للتقْوَى» جمْلَة رَائِعة تدخل قرارات النفوس فتطمْئن لها وتحيط بالأفئدة فترتاح ، إنّ صِدقَ النتيجة لا يظهر إلا إذا كانت المعادلة صحيحة الأجزاء . والعدل لا يكون إلا المعادلة ين أطراف المجتمع ، وكلما كانت أجزاء هذه المعادلة صحيحة كانت النتيجة صادقة ، وصدّقها مجتمع فاضل .

٤ ــ الأخوة

قال تعالى : «إنّما الْمُؤمِنُونَ إخْوَة فأصْلِحوا بَيْنَ أخَوَيْكُمْ واتّقوا الله لَعَلكُمْ تُرْحَمونَ.»[الحجرات : ١٠] آية كريمة أرشدت الناس وعلمتهم كيف تسود المحبة التى هى روح المجتمع الإسلامى وعقله . امتاز الإسلام بالأخوة عن المجتمعات التى حوله إبان مترق الدعوة ، تلك المجتمعات التى ابتليت بالظلم والحقد وامتهان كرامة الآدميين . لقد محت الفوارق فى الجنس واللون وأشاعت الأخوة الإسلامية ، فبرزت فى المجتمع غريزة الإيثار والتضحية ، وشهد العالم لوناً جديداً سامياً من ألوان البشرية ،

وهبت عليه نسمات الرحمة والشفقة ، وظهرت للوجود شخصية المؤمن ، فكان الصحابى مثال الرجل الكامل نور القرآن يمشى بين يديه وسيرة الرسول ماثلة أمام عينيه وهى سيرة فيها معانى المثل العليا ، فالمؤمن لا يكذب والمؤمن لا يغضب ، بل يحل أموره بالعقل والحلم والإرادة ، والمؤمن يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة لأن المؤمن أخو المؤمن وناهيك بهذه الأخوة من تضحية وإيثار .

٥ – الناس من طينة واحدة

وجه الإسلام للبشرية نداء عاما فى معرفة أنفسهم وأصلهم الذى انحدروا منه جميعاً واسترعى نظرهم إلى رابطة دقيقة هى رابطة الرحم ، رابطة القرابة التى تفعل فى صلتها غريزة المودة والرحمة ، وفى هذا الاسترعاء إشارة دقيقة إلى أن بنى آدم انحدروا من طينة واحدة خلق منها الرجل مثلما خلقت المرأة وهما مصدرا النوع ، ومن بينهما تتكون الأسرة التى يجب أن يحكمها التراحم . فإذا تكاملت الأسرة فى نظامها وشرعت قواعد الارتباط بين أعطائها اجتازت الدولة متاعب الخلاف وأصبحت مشاكل المجتمع تحل نفسها بنفسها . إن أسرة تتكون على هذا الأساس تكون نواة لمجتمع فاضل تسوده المساواة ، وفى المساواة يبرز تكافؤ الفرص

فتظهر الشخصية المبدعة من بين أفراد المجتمع ، والمبدعون هم الذين يقولون كلمة الفصل فى تحديد خطوة الحياة الفاضلة ، قال تعالى : « يَأَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربّكم الذى خَلَقَكم منْ نَفسٍ وَاحدَةٍ وخَلَق منها زَوْجَهَا وبَثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كَانَ عَلَيْكم رقيباً . » [النساء : ١] وقال تعالى : « يَأَيُّها الناس إنا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذكرٍ وأنْثَى وجَعلناكُم شُعُوباً وقبَائِلَ لتعارَفُوا إنَّ أكرَمَكُمْ عِنْد اللهِ أتْقاكُمْ إنّ الله عَلِيمٌ خَبيرٌ . » [الحجرات : ١٣] .

٦ – إعلان حقوق الإنسان فى حجة الوداع أو كما يسميها بعض المسلمين حجة البلاغ

وقف النبى (ﷺ) فى عرفات فوق جبل الرحمة بين مائة ألف من المسلمين كما يرويه الأثر . وكان ربيعة بن أمية بن خلف واقفاً بجانبه ، فبدأ رسول الله بلاغه بكلمة مؤثرة اتجهت إليها أفئدة المسلمين وأصغت إليها أسماعهم . بدأها بقوله : أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً .

كان أمية يصرخ بصوته ليسمع الناس يردد قول الرسول فكان النبى يقول له : «قل أيها الناس ، أتدرون أى شهر هذا فيقول الناس :**الشهر**

الحرام ، فيقول الرسول : قل لهم إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا ، ويعيد الرسول القول وربيعة يصرخ بأعلى صوته ليسمع أول القوم وآخرهم .

أخذ النبي (ﷺ) فى هذا البلاغ يرشد الناس ويدعوهم للاستمساك بكتاب الله وسنة رسول الله وأن يحافظوا على أموال الناس وأعراضهم وأنفسهم وأن يردوا الأمانات إلى أصحابها ويبتعدوا عن أكل الربا وقتل النفس وأن يعلموا أن المؤمن أخو المؤمن وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس فلا تظلموا أنفسكم ، ونادى بين الناس بالمساواة جميعاً فقال : «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لا فَضْلَ لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . ولما أتم خطبته توجه إلى القوم وقال : «اللهم هل بلغت ؟» فأجاب القوم من كل ناحية نعم يا رسول الله ، فقال الرسول : «اللهم اشهد .» نزل النبي (ﷺ) من موقفه فصلى بالناس الظهر والعصر وقرأ الآية الكريمة [اليوم أكملتُ لكُمْ دينَكُمْ وَأتْمَمْتُ عليْكُمْ نِعْمتى وَرَضِيتُ لكُمُ الإسْلاَمَ دِيناً] .

٧ – مدرسة النبوة وتكوين شخصية المؤمن

فى ظلال القرآن الكريم وأقوال النبى وأفعاله اتسع أفق الثقافة والمعرفة ، فتعلم بها الرعيل الأول من المؤمنين الذين استقبلوا الإسلام فى فجره مع سموكعبهم فى الفصاحة والبلاغة ورفعة المجد ، ومنهم من كان قد عضّ على قارحة الكمال . كانوا إذا سمعوا آى القرآن الكريم اتسعت أمامهم آفاق الحياة واستبشروا بالعزة والمَنَعَةِ ، وإذا وقفوا بين يدى الرسول يرون أفعاله وينصتون إلى أقواله فيعملون بها ، وتتضح لهم يوماً بعد يوم أهداف الرسالة المحمدية ، ويكبر فى عيونهم وجود الإنسان وتتمثل لهم هذه العقيدة الصافية تحمل على جناحيها الرحمة والمودة والإخاء والتعاون بالأعمال الصالحة ، وهى كل ما يبتغيه الإنسان على وجه الأرض .

اتجه الإسلام فى تكوين الرجال فى استرعاء نظر المؤمنين إلى أسرار التكوين والخلق ومشاهد الطبيعة والتذكير بأيام الأمم الخالية وما حل بها ، وضرب الأمثال فى كثير من سور القرآن واتخذ منها دروساً من مجموعها تتكون شخصية المسلم المؤمن .

بدأ القرآن فى تربية الضمير الحيّ لأنه مفتاح الشخصية . فنزلت سورة [القيامة] التى جاء فى مفتتحها : « لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ ولا أُقْسِمُ

بالنَّفْسِ اللَّوامَةِ» وهو تعبير جزل اللفظ قوى اللهجة فى ضمنه العزم والقوة ، أى أن القسم فى التغيير العام للكون يعادل القسم بالنفس اللوامة والنفس اللوامة بتعبير علماء النفس هى الضمير الحىّ . إن وجود الضمير الحى بين جوانح الإنسان مقياس شخصيته فى الإبداع والإيجاد فى الإقدام والتخاذل فى العزّة والذلة ، فالضمير الحى تكمن فيه العزة والضمير الميت تطبع فيه الذلة .

هذه النفس اللوامة أو الضمير الحى هى الشرطى الخفى الذى يقف من المؤمن موقف الحارس الأمين تلومه على الخطأ وتحثه على عمل الخير وتثيبه وتفرحه إذا أصاب .

هذه النفس اللوامة أو الضمير الحى التى ربّاها القرآن بين جوانح المؤمنين ونمت وكبرت أغنت نظام الحكم فى عهد النبوة عن تكوين جهاز الشرطة ورجال الأمن ، فشخصية المؤمن عالية لأنه يرى الكرامة فى الدنيا بقوة الإيمان وفى الأخرى حيث وعد بأن يكون بين الخالدين .

وفى درس من دروس تكوين الشخصية المؤمنة . استرعى القرآن الإنسان المؤمن إلى أسرار الكون ومشاهد الطبيعة وإلى التفكير فى نفسه .

استرعى نظره إلى الشمس . هذه الكرة الملتهبة التى وهبت لكوكبنا الحياة ، إنها تضيئه وتمده بالقوة ، وإلى القمر والنجوم الدائرة فى أفلاكها المرتبطة بعضها ببعض برباط الجاذبية كما ترتبط أجزاء البناء ، وكل ذلك

من آيات الله الكبرى . استرعى نظر المؤمن إلى تعاقب الليل والنهار وتعاقب الفصول ليوجه نظره إلى أن هذا الكون العظيم إنما هو أثر ، وكل أثر لابد له من مؤثر وأن هذه الأصنام مخلوقة لا تخلق شيئاً ، فالإنسان الذى يعبدها هو الذى صورها ونحتها ، والإنسان نفسه كائن خاضع للفناء . وهذا الكون الدائر فى أفلاكه لن يكون إلا أثراً لمبدع قدير لا تدركه العقول .

واسترعى نظر المؤمنين إلى النفس ، هذه النفس العجيبة قال تعالى : «وَنَفْس ومَا سوّاها فألهمَهَا فُجُورهَا وتَقْوَاهَا قد أفْلَحَ مَنْ زكّاهَا وقَدْ خَابَ مَنْ دَسّاها» [الشمس : ٧ ـ ١٠] .

هذه النفس العجيبة التى تكَوّنَ جسمها فى نظام محكم إحكام نظام الكون وأودع هذا الجسم قوى النفس الباطنة والظاهرة وربط بين أفعالها برباط متين ، كل عضو وكل جهاز يؤدى وظيفته على حسب ما هيئ له ، وهب الله لها عقلاً ومنحها القوة فى التمييز بين الخير والشر وأودعها إرادة تبت فى الإحجام والإقدام ، ثم بين القرآن الرابح بين بنى آدم ، وهو ذلك الذى ينمى نفسه ويعلو بها والخاسر الخائب هو ذلك الشخص الذى ينزل بها إلى التدسية [وقَدْ خابَ من دسّاها] إلى الإخفاء ويسلك بها سبل القوى غير العاقلة ، فالإنسان بين مؤدب عاقل ذى خلق كريم وبين بهيمى ينزل بالإنسانية إلى مستوى الحيوان الأعجم .

واسترعى القرآن أنظار المؤمنين إلى مجموعة الفضائل التى تكون المجتمع الفاضل التى جاءت بها سورة (والعصر) فقد روى أنه كان الرجلان من أصحاب رسول الله (ﷺ) إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة «والعصر» ثم يسلم أحدهما على الآخر ، ذلك ليذكر كل منهما صاحبه بما يجب أن يكون عليه ، فإذا رأى منه شيئاً يجب أن ينبه إليه فعليه أن يذكره له .

قال تعالى : «والعَصْرِ إن الإنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ إلاّ الّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحَاتِ وتَوَاصَوْا بِالْحقّ وتوَاصَوْا بالصّبرِ.» .

ورد القسم فى القرآن مقوماً الزمنَ الذى هو ظرف شئون الحياة الاجتماعية من إيجاد وكسب وسلم وحرب وعزة وذلة وحياة وموت . هو الظرف الذى يحتوى أعمار بنى آدم وآجالهم ، هو الظرف الذى تتربى فيه النفوس وتتكون الأجيال وتتطور المجتمعات ، فالخاسر الخائب هو الذى لا يلتفت إلى مكانة الزمن فى الوجود فيصرفه عبثاً ويتخذه لهواً ، والفالح هو الذى يغتنم الزمن فيعمل فيه عملاً صالحاً ينفع نفسه وينفع أهله والناس أجمعين ، والفالح فى كل هذا هم المؤمنون الذين يتبعون توجيه الله وهداه ، واسترعى القرآن إلى أن الحق والصبر من فضائل المجتمع وهما حفاظ كل خير ورأس كل أمر ، وعلى المؤمن أن يدعو لهما وعلى المؤمنين أن يتواصوا بهما .

والحق هو ما تقرر من حقيقة ثابتة وشريعة صحيحة وهو العدل الذى هو عنوان حضارات الأمم ولذلك من شروط النجاة من الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ، ثم يحمل الناس بعضهم بعضاً عليه بأن يدعو كل صاحبه إلى الاعتقاد بالحقائق الثابتة التى لا ينازع فيها العقل وأن يبعدوا أنفسهم عن الأوهام والخيالات التى لا قرار للنفوس عليها ولا دليل يهدى إليها ولا يكون ذلك إلا بإعمال الفكر وإجادة النظر فى الأكوان حتى تستطيع النفس دفع ما يرد عليها من باطل الأوهام ، وهذا إطلاق للعقل من كل قيد مع اشتراط التدقيق فى النظر لا الذهاب مع الطيش والانخداع للعادة والوهم ، ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح بعد أن يعرفه فهو من الخاسرين .

أما الصبر فهو تلك الفضيلة التى تتجلى بها قوة النفس على احتمال المشقة فى العمل الصالح واحتمال المكروه من الحرمان واحتمال الآلام إذا عرضت المصائب بدون جزع ولا خروج فى وقعها عن حدود الحق والشرع ، فشرط النجاة من الخسران أن يصبر المؤمن وأن يوصى غيره بالصبر ويحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة السامية التى هى أم الفضائل .

هذه السورة قد شملت أحكامها جميع المكلفين من المؤمنين سواء بلغتهم دعوة الرسول فآمنوا بها وعملوا صالحاً وتواصوا بالحق والصبر فنجو

من الخسران ، أوأعرض عنها من أعرض فخسر ، أم لم تبلغهم دعوة ، فمنهم من صدق بمجموعة هذه الفضائل وآثرها على الرذيلة ففاز ، ومنهم من أعرض وساء عمله فخسر الخسران الذى يناسبه .

كان فى هذه السورة درس جامع بليغ تكاملت فيه فضائل المؤمنين فشد بعضهم أزر بعض وانطلقوا فى الحياة بقوة لا يخشون فى الحق لومة لائم . وفى جماع هذه الفضائل التى اشتملت عليها هذه السورة والآيات التى مرت بنا نرى الإشارة الواضحة إلى إيجاد تكافؤ الفرص لبروز شخصية المؤمن وتمتعه بالعدل والإخاء والمساواة . إن العدل مبعث الرضا والرضا يولد الإخاء وفى الإخاء مساواة .

فى هذا المحيط التربوى الإلهى المحفوف بالروعة والجلال تخرج تلامذة الإسلام فى جامعة محمد (ﷺ) . يا لها من جامعة استمرت ثلاثة وعشرين عاماً تخرج فيها الخلفاء والقادة وأمراء الجيوش وولاة الأمصار والقضاة والفقهاء والمحدثون والمستنبطون والمشرعون ، تخرجت فيها أمة كاملة تحب العدل وتعتز بكرامة الإنسان وترضى بالمساواة وتركن إلى الشورى وتمجد الوفاء وتحفظ حقوق العلماء تعلم الجهلاء وترشد السفهاء .

ثلاثة وعشرون عاماً والوحى ينزل من السماء ومحمد يبلغ ويحدث ، فتبليغه وحى وكلامه سنّة وفعله قدوة ، والناس راضون والإسلام يعلو شأنه يوماً بعد يوم . ومن هذه المدرسة اندفع الرعيل الأول من المؤمنين إلى العالم

يحملون قرآن محمد (ﷺ) وأدبه والقدر يخط لهم فى صحائف المجد فى فتوح البلدان ونور الإسلام يشع فيضىء الدجنة الحالكة بين الناس .

تخرج فيها أبو بكر فى إدارته وحزمه وعمر فى تنظيمه وعدله وعثمان فى كرمه وحلمه وعلى فى شجاعته وزهده وقادة الجيوش وأمراؤهم : خالد ابن الوليد والمثنى بن حارثة وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وعمرو بن العاص وغيرهم من عباقرة الإسلام وناهيك فى تنويه القرآن الكريم بالنبى (ﷺ) وصحبه فى قوله تعالى : «هوَ الّذِى أرسَلَ رسولَه بِالْهدَى وَدِينِ الحقَ ليظهره علَى الدّينِ كله وكَفَى باللهِ شَهِيداً ، محَمّد رسول اللهِ والّذِينَ آمَنوا مَعَه أشِدّاء عَلَى الكفّارِ رحَماء بَيْنَهُمْ تَرَاهمْ ركّعاً سجّداً يبْتغونَ فَضْلاً منَ اللهِ وَرضْوَاناً ، سِيمَاهم فى وُجُوهِهمْ مِنْ أثَرِ السّجُود ذَلِكَ مَثلهمْ فى التّورَاة وَمَثلهمْ فى الإنجِيل كزرع أخرج شَطْأَهُ فَآزَرَه فَاسْتَغْلَظَ فَاستوى عَلَى سوقِه يعْجِبُ الزّرّاعَ لِيغيظَ بهِم الكفّارَ وَعَد الله الذِينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحَاتِ مِنْهم مغْفِرة وأجرا عظيما» [الفتح: ٢٨ و٢٩] .

هؤلاء الذين خرجتهم العناية الإلهية وأمدتهم بالشدة والعزم وجهزتهم بالرحمة والأخوة لا يركعون إلا لله ولا يسجدون لغيره . لا يبتغون إلا رضاه ، هم رحماء بينهم أشداء على الطواغيت عبدة الأصنام الذين ينكرون وحدانية الله ويكفرون بها ، إن هذا الرعيل الصادق هم نتاج

العناية الإلهية فى كتبه السماوية مثلهم فى تنمية المجتمع وتطوره كمثل الزرع اليانع الذى يتكامل نموه فيزهر ويثمر ، فثمارهم أعمال صالحة لأنفسهم وللمجتمع الفاضل الذى أبدعوه ، هذا الرعيل الأول رمى بهم الإسلام وجه الدهر فقصروا آماده وأنشئوا حضارة زاهية زاهرة فى ربع قرن .

٨ – أبو بكر الخليفة الأول وتطبيق المساواة

أغمض محمد (ﷺ) عينيه وصعدت روحه إلى الرفيق الأعلى ، فتقدم أبو بكر إليه وهو مسجىً ، فقال بأبى أنت وأمى طبت حياً وطبت ميتاً ، ثم خرج إلى الناس يدعوهم للصبر ويحثهم على الثبات ، وتلا عليهم آية الكتاب المبين «وَمَا مُحَمَّدٌ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْله الرُّسُلُ أفَإنْ ماتَ أوْ قُتِل انقَلَبْتُمْ علَى أعْقَابِكُم وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْه فَلَنْ يَضُرّ الله شَيْئاً وسَيَجْزِى اللهُ الشّاكِرِينَ» [آل عمران : ١٤٤] .

ثم قال فى أول خطبة له : «أيّهَا النّاسُ مَنْ كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبُد الله فإن الله حىٌّ لا يموت» .

كانت هذه الخطبة ثمرة من ثمار مدرسة النبوة فيها صلابة العقيدة وفيها الإيمان بالله ، وفيها أن الاعتراف بالكائن الحى والجهاد لا تلازمها صفة

البقاء وأن الباقى الوحيد إنما هو إله السماء الذى لا يعبد أحد سواه ، وفى هذه الخطبة ظهرت قوة الشخصية التى كونتها جامعة محمد (ﷺ) فى تلامذته .

ولما أخذ أبو بكر زمام الخلافة فى يده قال فى خطابه للناس : «إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه ، إن أحْسَنْتُ فأعينُونى وإن أنا زغت فقومونى ، لايدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل .» كأن أبا بكر يريد أن يقول للمؤمنين ، لقد أصبحنا عرضة لامتحان الزمن فيما أفدنا من رسالة محمد فلنثبت للتأريخ أننا نريد أن نقطع مسافاته بقوة إرادتنا وصدق إيماننا وأن هذه الأمة التى أنشأها محمد وسجل عليها أنها خير أمة أخرجت للناس لن ندعها تسقط فى الامتحان وسندفعها إلى مراحل الإبداع . إننا لا ندع فضائل العدل والمساواة تضل فى البيداء . إنها روح هذا الدين فإذا تخلينا عنها عدنا إلى الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء ؛ إن العرب شرعت تعيد جاهليتها جذعة والله لن أدعها تفعل ذلك ! وقال : «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه» إن فى خطابه تتردد هذه المعانى : إن العناية الإلهية قد اختارتكم لأداء رسالة المجتمع الفاضل ومنكم سيكون الشعب الذى يحطم قيود العبودية وينشر المساواة

بين الناس . إنكم تحيطوننى بالإجلال والكرامة فإن أحسنت فأعينونى وإن أنازغت فقومونى .

بهذا السموّ سار أبو بكر سيرة الوالى الحكيم والقائد الواثق بنفسه فأنفذ جيش أسامة إلى الشام لإنقاذ البشرية من تعسف الروم ولنشر كلمة التوحيد والمساواة بين الناس ولدفع العوادى التى يمكن أن تقف دون رسالة الإسلام ، وقال فى إنفاذ هذا الجيش : «والله لو علمت أن السباع تأكلنى فى هذه المدينة لأنفذت جيش أسامة ولن أنقض أمراً هيأه الرسول ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .» وأوصى قائد الجيش وجنده بقوله :

لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة .» .

ما أروع هذه المثل العليا فى حروب الأمم وما أرفع شأن الإسلام فى التعمير وما أبعده عن التدمير ، إنه مثل من أمثلة السمو صبه الله فى قلوب هؤلاء الرجال النابتين فى الصحراء الساكنين بواد غير ذى زرع ليلقوا على الناس دروس الفضيلة فى كرامة الإنسان وحفظ دمه وماله وعرضه ..

فلم يكن جيش أبى بكر فى ظلال التوحيد وراية الإسلام مثل جيش كسرى فى ظلال ميثرا إله الشمس عندما اجتاح سوريا فأحرق فيها الزرع والضرع ، ولا مثل جيش تيطس فى ظلال جوبيتر عندما اجتاح مدينة

القدس . لقد كان جيش أبى بكر نجدة للإنسانية وكرامة بنى آدم .

كان شعار الجيوش الإسلامية المساواة : «لكم ما لنا وعليكم ما علينا» .

كان هذا المبدأ السامى شعار جيش القائد خالد بن الوليد عندما أرسله أبوبكر إلى العراق لنجدة أهل الحيرة وفتح العراق . فَلّ خالد جيوش فارس حيثما التقيا حتى وصل الحيرة . فخلا بكل صاحب قصر فكان يقول لهم : **«ويحكم ما أنتم» ؟ أعرب فما تنقمون من العرب ، أوعجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟**

فقال له عدى بل عرب عاربة وأخرى متعربة .

قال خالد : لوكنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا ؟

قال عدى : «ليد لك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية ،

قال خالد : صدقت ! فاختاروا واحدة من ثلاث ، أن تدخلوا ديننا فلكم مالنا وعليكم ما علينا ، إن نهضتم وهاجرتم أوأقمتم فى دياركم . أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة . [الجزية : ضريبة تدفع للحماية فإن أهل المدينة لا يحاربون ولا يدافعون عن أنفسهم وإنما الجيش الإسلامى هو الذى يضمن المحافظة على الأنفس والأموال]

قال عدى : بل نعطيك الجزية .

خالد : غضب خالد وقال : تباً لكم ! ويحكم ! إن الكفر فلاة مضلة فأحمق العرب من سلكها فلقيه دليلان أحدهما عربى فتركه واتخذ الأعجمى دليلاً .

وأنفذ أبو بكر خالد بن الوليد لنجدة الجيش فى الشام .

فى موقعة مرج الصفر جنوب دمشق انهزم جيش الروم وحاول الاعتصام خلف أسوار دمشق فتعقبه خالد بن الوليد وألقى الحصار على دمشق ودام الحصار ستة أشهر سلمت بعدها المدينة عام ٦٣٥ م وكان المفاوضون أسقف المدينة ومنصور بن سرجون جد القديس يوحنا الدمشقى وكبير الموظفين فى إدارة المال . ففاوضهم خالد على الأسس التى جاء بها الإسلام وكتب بذلك عهداً هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها ، أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن [مكان] من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (ﷺ) والخلفاء والمؤمنين ، ولا يعرض لهم إلا بالخير إذا أعطوا الجزية .

وكانت المدن السورية تستقبل الفاتحين المسلمين بصدور رحبة ، فكان مما خاطب أهل حمص جيوش المسلمين قولهم : «لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم» .

وبهذه العدالة الشاملة والإيمان الصادق وشعار المساواة والكرامة تقرر مصير سوريا وقد اعترف هرقل نفسه بدلك ، وقال كلماته الأخيرة . «عليك ياسورية السلام ونعم البلد هذا للعدو» .

٩ – تطبيق الضمان الاجتماعى ومبدأ المساواة فى عهد عمر بن الخطاب

سمى عمر بن الخطاب الفاروق لأنه كان يفرق بين الحق والباطل ، فكرامة بنى آدم حق وامتهانها باطل ، ولقد اجتمع لعمر اللين والرحمة مع الشدة والقسوة ، وكان العدل ميزاناً بين هذه وتلك ، وكانت إرادة عمر الحازمة وعبقريته المبدعة هى التى تضع الأمور فى نصابها .

تخرج عمر فى جامعة محمد (ﷺ) الصانعة الرجال ، وكان أبرز ما فى هذه الصفة التغلب على الذات وهو شعار فيه التضحية فى الوقت وفى المسرات والاتجاه إلى الإبداع فى صبر وثبات من أجل الإنسانية .

قال فى خطبته إلى الناس : «إنى قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم .» .

ساس عمر الأمة بهذا الحزم وكان كثير التوفيق فى اختيار عماله على الولايات ، كان يبعثهم إلى الأقطار ويشيعهم بقوله لهم : «إنى لم أستعملكم على أمة محمد (ﷺ) على أشعارهم ولا على أبشارهم ، إنما أستعملكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالعدل» .

وكان يقول : «أربع من أصل الإسلام لست مضيعهن ولا تاركهن لشيء أبداً :

١ – القوة فى مال الله وجمعه حتى إذا جمعناه وضعناه حيث أمر الله وقعدنا آل عمر ليس فى أيدينا ولا عندنا منه شيء .

٢ – والمهاجرون الذين تحت ظلال السيوف ألا يحبسوا ولا يجمّروا وأن يوفر فَيْءُ الله عليهم وعلى عيالاتهم ، وأكون أنا للعيال حتى يقدموا .

٣ – والأنصار الذين أعطوا الله عز وجلّ نصيباً وقاتلوا الناس كافة أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وأن يشاوروا فى أمر الله .

٤ – والأعراب الذين هم أصل العرب ومادة الإسلام أن يؤخذ من صدقتهم على وجهها ولا يؤخذ منهم دينار ولا درهم وأن يرد على فقرائهم ومساكينهم» .

وبذلك يرى عمر أن تستمر أعطيات الجنود الذين هجروا بلادهم ووقفوا على الثغور أو تجاوزوها لنشر العقيدة وأن يوفر لعيالهم رغد العيش وقد تكفل أن يقوم بذلك بنفسه ، ثم ينظر إلى البادية فيجد فيها المادة التى

تزود المدينة بالثروة الإنسانية ، فهى كالريف الذى يمد المدن بالقوة البشرية فيرعاهم وخاصة فى الصدقة (الضريبة) حيث تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم .

الضمان الاجتماعى والمساواة :

وضع عمر نظام الضمان الاجتماعى بطريقة مبتكرة ، فقد فرض العطاء للناس من بيت المال ، فكتب الدواوين لتسجيل أفراد الأسرة ، وكان يحمل الديوان بيده فإذا نزل قبيلة خزاعة دعا أسرها أسرة أسرة فلا تغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب ، فيعطيهن بأيديهن ، وينزل عسفان فيفعل مثل ذلك ويقول : « والله مامن أحد إلاله فى هذا المال حق أعطيه أومنعه وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدهم ولكنا على منازلنا فى كتاب الله وقسمنا من رسول الله والرجل وبلاؤه فى الإسلام والرجل وقدمه فى الإسلام والرجل وغناؤه فى الإسلام والرجل وحاجته والله ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه » .

وكان يقول : « لئن عشت إن شاء الله لأسيرن فى الرعية حولاً فإنى أعلم أن حوائج تقطع دونى ، إما عمالهم فلا يرفعونها إلىّ ، وإما هم فلا يصلون إلىّ ، فأسير إلى الشام فأقيم فيها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة

فأقيم فيها شهرين ثم أسير إلى مصر فأقيم فيها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم فيها شهرين . ثم أسير إلى الكوفة فأقيم فيها شهرين .

عمر لا يرضى بالمصادرة والتأميم :

ولما استقر الجند الفاتح فى العراق تقدم إلى عمر جماعة منهم يريدون تقسيم الأرض المزروعة عليهم ، فهاله الأمر لأول وهلة فدعا أصحاب رسول الله للتشاور فى هذه الظاهرة الجديدة فانقسم الجمع فريقين : فريقاً فيهم عمر وعلى بن أبى طالب وفريقاً فيهم بقية من كبار الصحابة .

فتغلب فريق عمر وعلى حيث قرر هذا الفريق إبقاء الأرض بيد أهلها لأنهم الخبيرون بشئون الزراعة ، أما جند الفتح فهم أعلم بشئون الحرب وهم الذين يحملون الأمانة فى نشر العقيدة ودفع الظلم عن الناس والمحافظة على أموالهم وأنفسهم وكرامتهم ، وهكذا بقيت الأرض ملكاً لأهلها ، وأمر عمر فمسحت الأرض فكانت اثنين وثلاثين ألف ألف جريب أى ما يقرب من اثنين وثلاثين مليون فدان . ووضع على كل جريب درهماً وكل نخلة خمسة دراهم وكل كرمة خمسة عشر درهماً فامتلأ بيت المال بهذه الضريبة العادلة .

الضمان الاجتماعى للعجزة :

لقى عمر بن الخطاب شيخاً كبيراً يسأل الصدقة فقال له : ما أنت أيها الشيخ ؟ قال : أنا شيخ كبير أسأل الصدقة والإحسان ، وكان الشيخ يهودياً من سكان المدينة ، فإذا بعمر يأخذ بيده ويقول : ما أنصفناك يا شيخ . أخذنا منك الجزية شاباً ثم ضيعناك شيخاً ، فأخذ بيده إلى خازن بيت المال وقال له : « افرض لهذا وأمثاله ما يغنيه ويغنى عياله » .

عمر بن الخطاب والمؤلفة قلوبهم فى المساواة :

كان فريق من الأساورة [وهم من المقاتلة المرتزقة اختلف فى معرفة جنسيتهم ، وهم غير إيرانيين] يسكنون الأبلة قرب البصرة ، وكانوا يحاربون مع من يجزل لهم العطاء قبل الإسلام ، فلما استقرت الجيوش الإسلامية تقدم أحد قادتهم واسمه « سياه » إلى أبى موسى الأشعرى . فقال له : إنا قد رغبنا فى دينكم على أن نقاتل معكم العجم ولا نقاتل معكم العرب ، وإن قاتلنا أحدٌ من العرب منعتمونا منه وننزل حيث شئنا ونكون فيمن شئنا منكم وتلحقوننا بأشرف العطاء ويعقد لنا الأمير الذى هو فوقك بذلك . فقال أبو موسى « بل لكم ما لنا وعليكم ما علينا » .

قالوا لا نرضى . فوجد أبوموسى فى هذه الشروط من هذا الفريق

الداخل فى الإسلام مطالب لم يجدها فى تعاليم الإسلام بل وجد فيها خروجاً على القاعدة العامة الثابتة : «إنّما المؤمنون إخوةٌ» التى فيها كل معانى المساواة ، وتخيل أنها لم تكن إلا مما تحدر إلى هؤلاء من أسلافهم فى عاداتهم وعقائدهم ، فأجابهم أنّ شعار الجند الإسلامى «لكم ما لنا وعليكم ما علينا» فرفضوا ما طلب . فكتب أبو موسى إلى عمر . فرد عليه بأن أعطهم ما سألوك . فأجابهم أبو موسى وأسلموا . بيد أن هؤلاء لم يبرهنوا فى بادئ الأمر على إسلامهم فقد رآهم فى حصار تستر غير جادين . فلما سألهم عن سبب ذلك ردّ عليه قائدهم سياه ، لسنا مثلكم فى هذا الدين ولا بصائرنا كبصائركم ، وليس لنا حرم نحامى عنهم ولم تلحقنا بأشرف العطاء ولنا سلاح وكراع [أى لنا سيوفنا وخيلنا] وأنتم حسر .

فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر . فرد عليه عمر : «ألحقهم على قدر البلاء فى أفضل العطاء» .

لقد رأى عمر الصواب بقول سياه حين ذكر أن جند الأساورة مدججون بالسلاح يحاربون على صهوات خيولهم وأن كثيرين فى جند المسلمين ليس لهم هذه الميزة فعوضهم عنها وأمر أبا موسى أن يتألف قلوبهم رجاء أن يحسن إسلامهم ويبلوا البلاء المنتظر .

وسمع عمر أن وفداً من الموالى والعرب جاء إلى عامله فأعطى العرب

ومنع الموالى ، فكتب عمر إلى عامله هذه الرسالة المؤثرة يقول له فيها :
«أما بعد فحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم والسلام» .

استقلال القضاء فى عهد عمر وصيانة العدل :

اختط عمر المدن ووضع التأريخ وكتب ديوان الأسرة وديوان الجيش وجبى الأموال ووزع الثروة توزيعاً عادلاً ورفع شأن الأسرة ، ما استذل أحداً ولا صادر مالاً ولا أمم مشروعاً ، جعل الفرد يعمل والأسرة تعمل ، وأعز كرامة الاثنين ، وجعل بيت المال للمسلمين دون أن يحدث طبقية مفتعلة ودون أن يحكم طبقة فى رقاب طبقة أخرى .

وضع نظام الخراج كما تعلمه من القرآن وقضى بين الخصوم بشريعة الله . وكان يقول : أيها الناس ، كنا نقضى بينكم بالوحى فى عهد رسول الله (ﷺ) فلما مات النبى انقطع الوحى ، فاليوم نقضى بينكم بكتاب الله وسنة رسوله ، من عمل عملاً صالحاً وله نية سيئة عاملناه بما عمل ومن عمل عملاً سيئاً وله نية صالحة عاملناه بما عمل ، لنا الظاهر والله يتولى السرائر . لقد صان عمر القضاء ورفع شأن العدل الذى هو عنوان الحضارة والمساواة فوق كل منزلة وحسبك أن تقرأ رسالته فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى وهى :

كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء يقول له :

إن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييئس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً وحرم حلالاً . لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه إلى رشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم اعرف الأشباه والأمثال ،فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله .

قبل أربعة عشر قرناً يرشد عمر بن الخطاب قضاته إلى كيفية إيقاع الحكم باستنادهم إلى نص مكتوب ، إما فى القرآن وإما فى السنة النبوية ، أى الحديث عن رسول الله . فإن لم يجد القاضى فى ذلك عمد إلى القياس « اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور » فإذا لم يجد فى القياس ما يوافق القضية عمد إلى الصلح فإنه جائز بين المسلمين إذا لم يخرج على قواعد الشرع والعرف ، وفى كل ذلك نجد أن عمر يوصى قضاته بأن يكون بين جوانحهم ضمير حى يعالجون على مقتضاه وبتوجيهه أمور الرعية .

حكم عمر فعدل ، وكان عهده أبرز العهود فى المساواة بين الناس . سَمِّ حكمه ما شئت ! سَمِّه عدلاً فحسب ، أو عدلاً اجتماعياً . سَمِّه اشتراكية فى المصطلح الحديث . سَمِّه ما شئت ، فإنه حكم فيه عبقرية الإسلام فى المساواة .

١٠ – بيت المال والمساواة

اتسعت رقعة الإسلام وضربت جيوش المسلمين فى الأرض تدعو لدين الإسلام وتنشر العدل والمساواة وتدافع عن العقيدة ، فدخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فكثر عدد المسلمين ومنهم الموسر ومنهم المعسر ، واشتدت الحاجة إلى المال لحل معضلات المجتمع الجديد ولإعالة الجيوش وإعالة الأسرة التى يتركها عائلها إذا ركب جواده أو ناقته للجهاد فى سبيل الله ، أو لإسناد الضعفاء الذين هم فى أشد الحاجة إلى معين ، وأخذت آيات القرآن الكريم تنزل تباعاً تؤكد فى مواقع كثيرة حق الفقراء فى أموال الأغنياء .

نزلت الآية الكريمة : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهاَ ، وصَلِّ عَلَيْهِمْ إنَّ صَلاَتَك سَكَنٌ لَهُمْ والله سَمِيع عَلِيم . » [التوبة : ١٠٣] .

فأصبحت الصدقة فرضاً على المسلم الموسر ، وصار للمسلمين بيت مال تجمع فيه أموال الصدقة ، وكان أكثر ما فى حوزة الصدقة الماشية ، إذ بلغ ماكان منها فى عهد النبى ما يقرب من أربعين ألفاً من الإبل والخيل وغيرها . وكانت لها مراع خاصة بها وميسَم توسم به . وكان النبى يتولى ذلك بنفسه ، وكان محلها فى البقيع يحفظها العاملون عليها الذين لهم حصتهم منها ، وكان للصدقة أمراء وعمال يبعثهم الرسول إلى أنحاء البلاد .

وقد حددت هذه الفريضة تبعاً لعدد الماشية ونوعها . وحددت على الفضة بالدرهم وعلى الذهب بالمثقال وعلى الثمار بالعشر ونصف العشر وفقاً لطبيعة الأرض وطريقة ريها ، ووضع حد تقف عنده الفريضة فلا يؤخذ من مقداره شيء [الإعفاء] وكل المقادير مفصلة تفصيلاً واضحاً فى كتب الشريعة الإسلامية .

كانت هذه الصدقة توزع على من جاء ذكرهم فى الآية الكريمة :

« إنما الصَّدَقَات للفقَراء والمسَاكِين والْعَامِلِينَ عَلَيْها والمؤلَّفَة قلوبهمْ وَفى الرِّقَابِ وَالغَارِمينَ وَفى سَبيلِ اللهِ وابْنِ السَّبيل فَرِيضَة مِنَ اللهِ والله عَلِيم حَكِيم » [التوبة : ٦٠] وهم :

١ – الفقير : هو المحتاج الذى يمكن أن تحفظ كرامته بمعونة من بيت المال فلا ينزل إلى السؤال :

٢ – المسكين : الذى لا شيء عنده وهو أشد حاجة من الفقير .

٣ – العاملون على الصدقة : وهم الذين يتولون جمعها وحفظها وخزنها وكتابة دواوينها ورعاة الأغنام .

٤ – المؤلفة قلوبهم : وهؤلاء أنواع مختلفة ، سواء أكانوا مسلمين أم مشركين ، فلا يوجد نص يمنع أن يؤلف قلب من حسن إسلامه وإيمانه لقدمه فى الإسلام بإعطائه ما لا يناسب مكانته . كما تؤلف قلوب بعض كبار القوم الضعفاء الإيمان حتى يقوى إيمانهم ، وقد فعل النبى (ﷺ) مع بعض الطلقاء من أهل مكة ، أسلموا وفيهم المنافق وضعيف الإيمان وقد حسن إسلامهم وقوى إيمانهم .

ومن المؤلفة قلوبهم قوم من المسلمين يسكنون الثغور والحدود يعطون أيضاً من أموال الصدقة أملاً فى دفاعهم عن المسلمين إذا هاجمهم العدو . وهناك فريق آخر يؤلف قلبه ويسترضى لمكانته بين قومه ولتأثيره فيهم فى جباية الزكاة ممن لا يعطيها إلا بنفوذهم وجاههم ،ويعطاها المشركون الذين يرجى إيمانهم فتؤلف قلوبهم إكراماً لمنزلتهم بين قومهم وقد أسلم من هذا السبيل كثيرون وحسن إسلامهم .

٥ – المكاتبون : وهم العبيد الأرقاء يدفع عنهم بيت المال فتفك رقابهم ليصبحوا أحراراً وفى هذا منتهى السمو فى العقيدة الإسلامية التى حاربت الرق حرباً بأقوى الطرق ، حاربته ببذل المال بغية إعطاء الحرية ، وحاربته بالثواب ، ثواب الآخرة فإن أجر من يعتق عبداً ويحرره

عند الله عظيم . وقد جعلت الشريعة الإسلامية عتق الرقيق كفارة لليمين وكفارة للإفطار من الصوم .

٦ – الغارمون : وهم المدينون الذين أصابتهم جائحة أو تحملوا حمالة فلم يستطيعوا دفع ما عليهم من الديون فيؤدى بيت المال عنهم ديونهم حفظاً لكرامتهم وحفظاً لحقوق الدائن .

٧ – الغزاة : وهم المرابطون على الثغور لإعلاء كلمة الله الذين ليس لهم اسم فى ديوان الجند .

٨ – ابن السبيل : وهو المنقطع فى سفره وليس لديه مال يقوم بأوده ليرجع إلى بلاده .

أما أهل الكتاب ، فقد عالج الإسلام أمرهم بتأليف قلوبهم إن كانوا فقراء بالطريقة التى أوصى بها النبى (ﷺ) معاذ بن جبل حين بعثه والياً وقاضياً على اليمن فقال له : إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإن أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم .

فى هذا النمط العالى من الضمان الاجتماعى استطاع الإسلام أن يكفّ

عيون الفقراء عن أموال الأغنياء ويحفظ التوازن بين طبقة موسرة وطبقة معسرة .

لقد كانت أنعام الصدقة وأموالها فى زمن الرسول من الكثرة بحيث يخيل للمرء أنه لا فقير فى عهد النبوة ، وأن الناس بعافية وخير ، وأن الأسرة مكفولة إذا ذهب عائلها إلى الحرب أو مات ، واستمر هذا النظام الرائع وهذه الألفة والمحبة بين الفقراء والأغنياء أيام الرسول لا تشوبه شائبة ، وظلت المجموعة الإسلامية تمثل مجتمعاً فاضلاً ليس فيه حقد أو حسد ، وليس فيه تخمة من ناحية وآلام وحسرة من ناحية أخرى لقوة الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وإطاعة ما أنزل من الذكر الحكيم الذى أخذت آياته البينات تترى فى نزولها تنذر وتبشر ، تنذر من يتأخر عن إعطاء الصدقة وتبشر من يتسابق فى أدائها .

قال تعالى : « إنّ الإنْسَانَ خلِقَ هَلوعاً إذَا مسّه الشّرُّ جزوعاً ، وإذَا مَسّه الْخَيْر مَنوعاً إلا المصَلّينَ الّذينَ همْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائمونَ والّذِين فى أَمْوَالِهِمْ حَق مَعلومٌ لِلسائِلِ وَالْمَحْرُومِ . » [المعارج : ١٩ — ٢٥] .

وقال تعالى : « فأما من أعطى واتقى وَصَدّقَ بالْحسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ للْيسْرَى وَأمَّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى وَكَذّبَ بِالْحُسنَى فَسَنيسرُهُ للعسرى ، وَمَا يغنى عَنْه مَا له إذَا تَرَدّى » [الليل : ٥ — ١١] .

وقال تعالى : « أرَأَيْت الّذِى يُكَذّبُ بِالدِّين فَذَلِكَ الّذِى يَدُعُّ الْيتِيمَ

وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ» [الماعون : ١ – ٣] .

في كل هذه الآيات البينات يحض القرآن الموسرين على أن يرفعوا ذلة الفقر عن الإنسان حفظاً لكرامته .

١١ – مظهر المساواة فى الصلاة

فى أكثر من ثمانين موضعاً وردت لفظة «صلّى» ومشتقاتها فى القرآن الكريم لمكانتها من تهذيب النفس وتواضعها عند الوقوف بين يدى الإله الواحد الأحد . وفى أكثر من مكان لا تذكر إلا مقرونة بالزكاة والعطاء وعمل الخير وذكر الله .

إنها تأملٌ فى أعمال الإنسان اليومية وإفساح مجال للنفس اللوامة ، تلك القوة التى ربى الإسلام عليها المؤمنين ، وهى ذلك الضمير الذى يحاسب صاحبه فيلومه على إتيان الخطأ ويحثه على عمل الخير .

إن فى الصلاة موقفاً بين يدى الله يخضع المرء فيه قواه للتفكير فى نفسه وفى مجتمعه وما يتطلبه هذا المجتمع من بذل المعروف والإحسان والتراحم والتوادد فضلاً عن التواضع الذى هو أميز سمات المؤمن وأبرز خصائص المساواة .

إن فى التأمل بين يدى الله سمو النفس عن إتيان ما يستقبح فعله من

منكر القول والزور وإتيان الفاحشة .

قال تعالى : «اتْلُ مَا أوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أكْبَر وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ . » [العنكبوت : ٤٥] عمد الإسلام إلى هذه التربية الموحية بهدوء النفس وكرامتها فى وقوف المسلمين صفا كالبنيان المرصوص بين يدى ﷺ لا فرق بين كبير وصغير ، وغنى وفقير ، وأمير أو فرد من غمار الناس .

خمس مرات فى اليوم والليلة لا تفلت فيها النفس الأمارة من بين يدى الله ولا من ذكره الذى يسمو به المرء إلى المثل الكامل للإنسانية .

لقد وضع القرآن للصلاة نظاماً خاصا ، فيه تيسير فى السفر والأذى والمرض ، وفيه تيسير عند الخوف والحذر . وحسبك أن تقرأ آى القرآن الكريم الذى يفصل طريقة الصلاة فى ساعة الحرب ، ففى ساعة الدفاع عن العقيدة الإسلامية ووجود خوف من العدو أن ينقض على المؤمنين ، على القائد أن يقسم الجيش فرقتين إحداهما معه يصلى بها والأخرى تقف مواجهة للعدو فإذا أتم الصلاة مع الأولى جاءت الأخرى لتؤدى الصلاة وتأخذ الأولى مكانها . قال تعالى : «وَإذَا كنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهم الصّلاَةَ فَلْتَقمْ طَائفَة مِنهمْ مَعَكَ وَلْيَأْخذوا أَسْلِحَتَهمْ فَإذَا سَجَدوا فَلْيكونوا مِنْ وَرَائِكمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَة أخْرىَ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيصَلوا مَعَكَ وَلْيَأْخذوا حِذْرَهمْ

وَأسلِحَتَهمْ . وَدَّ الّذِينَ كَفَروا لَوْ تغْفلونَ عَنْ أسْلِحَتِكمْ وَأمْتِعَتِكمْ فَيميلونَ عَلَيْكمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلاَ جنَاحَ عَلَيْكمْ إنْ كَانَ بِكمْ أذًى مِن مَطَرٍ أوْ كنْتمْ مَرْضَى أنْ تَضَعوا أسْلِحَتَكمْ وَخذوا حِذْركمْ إنَّ الله أعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً »[النساء : ١٠٢] .

١٢ – الحج
المؤتمر الإسلامى العام
والمظهر البارز للمساواة فى الإسلام

ملتقى المسلمين من سائر أقطار العالم الإسلامى إذا وصلوا إلى عرفة موقع المنبر العام ، هتفوا جميعاً « لبّيْك اللهم لبّيك لا شريك لك لبّيك ، إن الحمد والنعمة لك لا شريك لك » .

إنهم يصلون إلى هذا الموضع سواسية فى إزار ورداء مكشوفى الرأس فى صفوف زاحفة ، الكبير جنب الصغير والغنى جنب الفقير والأمير بجانب أى فرد من الجماهير يلبون نداء الله فى خشوع وخضوع فتختفى كلمة « أنا » فى الوجود الإسلامى وتحلّ محلها كلمة « نحن » وبعبارة أوضح تختفى الأثرة ويظهر الإيثار وتقتعد الرحمة مكانها فى قلوب الناس ويلمح الإنسان فى هذه الجموع الزاحفة وحدة الفكر فى التوحيد ووحدة الصف

فى الزحف للالتفاف حول جبل الرحمة الذى أعلن منه النبى (ﷺ) رسالة الإنسانية فى المساواة والإخاء والعدالة فى حجة الوداع . فى هذا المكان يدرك الإنسان نفسه ومعنى وجوده فى الكون ملتفاً بإزار ورداء مثل أخيه الذى بجانبه فيتطامن وتختفى من نفسه العظمة لأن التعاظم من شأن المجانين . فإذا كانت الخمرة أم الخبائث فى عرف العقلاء فإن التعاظم أبو الشرور ، ولو علم المتعاظم أن ما يتظاهر به لا يعدو الهواء الذى يكون فى منفاخ الحداد لصغرت نفسه فى عينه ولأسرع ركضاً ينشد فضيلة التواضع ، ولعلم أن الإنسان الذى يراه بجانبه إنما هو أخوه ، عليه أن يترضاه ويعينه ولا يلحق به الأذى .

هذا مقصد من مقاصد الحج ، شعور بالأخوة والمساواة والعدالة فى تواضع واتجاه واحد إلى رب السموات والأرض رب العالمين . وفى هذه المظاهر الإنسانية تتفتح النفوس للمنافع العامة وتقرير سئون المجتمع كما جاء بها القرآن الكريم : «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ويذكُروا اسم الله فى أيام معلومات . » وكما أقرها رسول الله (ﷺ) فى بيانه العظيم فى حجة الوداع التى أعطت أيام الحج صفة المؤتمر العام الذى يتداول فيه المسلمون ويبحثون فى شئونهم العامة ، فيلتقى فى هذا المؤتمر علماء الشريعة وعلماء الذرة والفضاء والمهندسون والأطباء يعرضون بحوثهم وما توصلوا إليه فى مختبراتهم ومخترعاتهم فيعين بعضهم بعضاً ويقررون إعانة الفقراء وينشرون

بيانهم السنوى على العالم الإسلامى ، ويتواصون بالحق والصبر والعمل الصالح ليستقبلوا عاماً جديداً فى مؤتمر أوسع ويجيبوا نداء الله : «وَأَذِّن فى النَّاسِ بِالْحَجِ يَأتوكَ رجَالاً وَعَلَى كل ضَامِرٍ يأتينَ مِنْ كلِ فَجٍ عَمِيقٍ . لِيَشْهدوا مَنَافِعَ لَهمْ وَيَذْكروا اسْمَ الله فِى أيَّامٍ مَعْلومَاتٍ عَلَى مَارَزَقَهمْ مِنْ بَهِيمةِ **الأنعام** فكلُوا مِنْهَا وَأَطْعِموا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ .»[الحج : ٢٧ و ٢٨] هذه أصول المساواة فى الإسلام : تربية وتطبيق توصل إلى مجتمع أفضل والله أعلم .

ثبت الرسالة «الفهرست»

الفصل الأول ، تمهيد :

الفصل الثانى الإسلام والمساواة :

الضمان الاجتماعى ومبدأ المساواة فى عهد عمر بن الخطاب . الضمان الاجتماعى ، عمر لا يرضى المصادرة والتأميم . الضمان الاجتماعى للعجزة والمسنين . عمر والمؤلفة قلوبهم ، استقلال القضاء وصيانة العدل (١٠) بيت المال والمساواة (١١) مظهر المساواة فى الصلاة (١٢) الحج المؤتمر الإسلامى العام والمظهر البارز للمساواة فى الإسلام .

المراجع

من يرد التوسع فى الموضوعات فليرجع إلى :

١ – القرآن الكريم .

٢ – تفسير جزء عم للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

٣ – فى مهبط الوحى للدكتور محمد بديع شريف بغداد ١٩٦٥ .

٤ – الصراع بين الموالى والعرب للمؤلف القاهرة دار الكتاب العربى ١٩٥٤ .

٥ – تأريخ سوريا ولبنان وفلسطين للدكتور فيليب حتى جزءان – دار الثقافة – بيروت .

٦ – للدكتور محمد بديع شريف **Strangers in Palestine London**

٧ – مدخل لدراسة مطامع اليهود فى فلسطين قديماً وحديثاً للدكتور محمد بديع شريف – معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٣ .

٨ – القومية ، تأليف بويد شيفر تقديم فى عرض وتحليل للدكتور محمد بديع شريف ترجمة مؤسسة فرنكلين بغداد ، نشر دار الحياة بيروت ١٩٦٦ .

٩ – الطبرى طبع أوربا ١٨٧٩ – ١٩٠١ .
١٠ – البلاذرى فتوح البلدان طبع أوربا ١٨٦٦ .
١١ – الفهرست لابن النديم لأيبسك ١٨٧١ – ١٨٧٢ .
١٢ – طبقات ابن سعد طبع أوربا ١٩٠٤ .
١٣ – الكامل لابن الأثير طبع القاهرة ١٣٠٣ .
١٤ – البلاذرى أنشاب الأشراف ١٩٣٦ .
١٥ – ابن خلدون المقدمة طبع القاهرة وطبعة باريس ١٨٥٨ .
١٦ – ابن هشام السيرة طبع أوربا ١٨٥٨ – ١٨٦٠ .
١٧ – راجع حوار العباقرة تأليف باول أرنست وتعريب الدكتور محمد بديع شريف طبعة دار المعارف فيما يخص الحوار بين الراعي وهو ميروس عن الأصنام .

صدر من هذه السلسلة :

١ – طعام الفم والروح والعقل	توفيق الحكيم
٢ – الفضاء ومستقبل الإنسان	د . فاروق الباز
٣ – شريعة الله وشريعة الإنسان	المستشار على منصور
٤ – أسس التفكير العلمى	د زكى نجيب محمود
٥ – عالم الحيوان	د . محمد رشاد الطوبى
٦ – تاريخ التاريخ	على أدهم
٧ – الفلسفة فى مسارها التاريخى	د . توفيق الطويل
٨ – حواء وبناتها فى القرآن الكريم	أمينة الصاوى
٩ – علم التفسير	د . محمد حسين الذهبى
١٠ – المسرح الملحمى	د .. عبد الغفار مكاوى
١١ – تاريخ العلوم عند العرب	د . أحمد سعيد الدمرداش
١٢ – شلل الأطفال	د . مصطفى الديوانى
١٣ – الصهيونية	فتحى الإبيارى
١٤ – البطولة فى القصص الشعبى	د . نبيلة إبراهيم سالم
١٥ – الحضارة	د . أحمد حمدى محمود
١٦ – أيامى على الهوا	سلوى العنانى

الكتاب القادم :

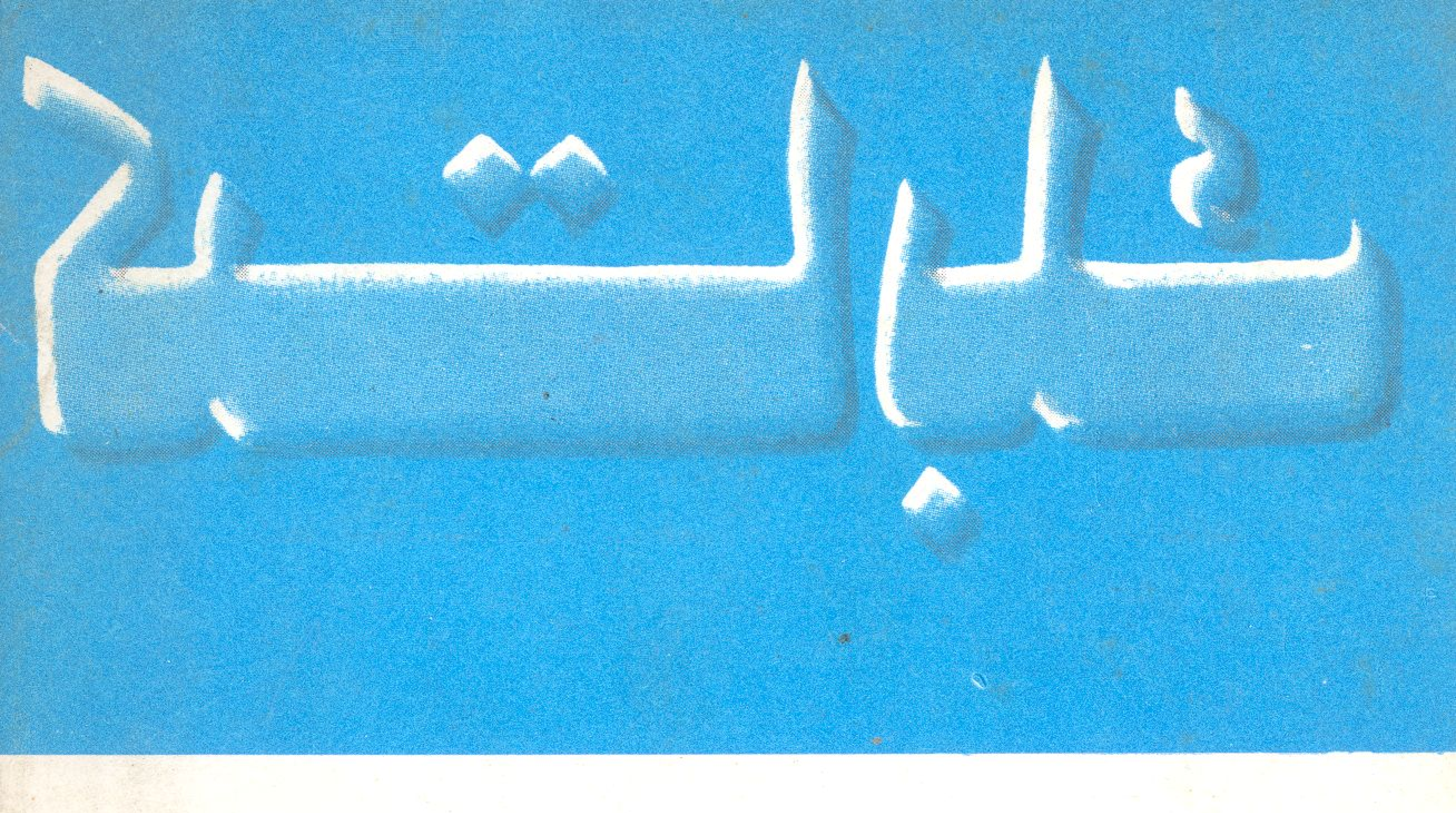
القصة القصيرة

د . سيد حامد النساج

رقم الإيداع	١٩٧٧/٤٧١٥
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٦٢ – ٤

٨١/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



هـذا الكتاب

من كهوف الأساطير والخرافات .. إلى عوالم النور والمبادئ القويمة . من عبادة الأصنام إلى عبادة الله خالق كل شيء . يطوف بنا المؤلف عبر المبادئ التي جاء بها الإسلام لتحقيق المساواة ب
الطبقات الاجتماعية .. والعد
كرامة الإنسان وحقوقه الشخ
أصبح للمجتمع الإسلامي
تراجعت أمامه كل التيارات

١٠ ج